قال إبليس لربه

قال رسول اللَّه ﷺ:

[قَالَ إِبْلِيسُ لِرَبِّهِ: يَا رَبِّ أَهْبَطْتَ آدَمَ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ كِتَابٌ وَرُسُلٌ، فَمَا كِتَابُهُمْ وَرُسُلُهُمْ؟

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ: رُسُلُهُمُ الملَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ مِنْهُمْ وَكُتُبُهُمُ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْفُرْقَانُ.

قَالَ: فَمَا كِتَابِي؟

قَالَ: كِتَابُكَ الوَشْمُ، وَقُرْآنُكَ الشِّعْرُ، وَرُسُلُكَ الكَهَنَةُ، وَطَعَامُكَ مَا لَا يُذْكَرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَشَرَابُكَ كُلُّ مُسْكِرٍ، وَصِدْقُكَ الكَذِبُ، وَبَيْتُكَ الحَمَّامُ، وَمَصَايِدُكَ النِّسَاءُ، وَمُؤَذِّنُكَ المِزْمَارُ، وَمَسْجِدُكَ الأَسْوَاقُ][1].

مَنْ هو الشيطان؟

سؤالٌ طالما دار في عقولنا، دون أن نجد له جواباً، إن الشيطان غَيْبٌ عنا، يرانا ولا نراه، يهمس في آذاننا ويُوسوس لنا دون أن نعرفَ أين هو؟ ولا ماذا يفعل؟ ولذلك يبقى السؤال.. مَنْ هو الشيطان؟

اللَّه سبحانه وتعالى ـ رحمةً منه بعقولنا ـ أعلمنا مَنْ هو الشيطان.. وما هي قصة عداوته للإنسان.. وكيف نشأتْ.. وكيف نواجهه ونتغلب عليه، وعلى كل القوى الخفية والظاهرة في الكون.

اللَّه تبارك وتعالى يأمرنا أن نستعيذَ به.. ذلك لأن اللَّه جلَّ جلاله قاهر فوق كل خَلْقه.. المؤمن منهم والكافر، والطائع منهم والعاصي، والذي له

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والإتحافات السنية في الأحاديث القدسية ١٥٣ وفي كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٦/ ٤٤٠٥٦.

اختيار، والمقهور على الطاعة.. كل هؤلاء مقهورون للّه سبحانه وتعالى فلا شيءَ في الكون يخرج عن مشيئته.. ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

اللّه سبحانه وتعالى لا يخرج في كونه عن مراده الفعلي، ولكن يخرج الذين أعطاهم الحقُّ جلَّ جلاله الاختيارَ عن مراده الشرعي.. أو منهجه في «افعل ولا تفعل».

وهم يخرجون عن هذا المنهج باختيار اللّه سبحانه وتعالى؛ لأنه جَلَّ جلاله هو الذي خلقهم قادرين على الطاعة.. وقادرين على المعصية.. ولو أنه تبارك وتعالى أراد أنْ يخلقهم مقهورين على الطاعة لَفعلَ.

وهذا المعنى تجده في قول الحق تبارك وتعالى:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣، ٤].

وهذه الآية خطابٌ لرسول اللّه ﷺ الذي كان يحزّ في نفسه أن هناك من يرفضون الإيمان، وكان هذا الحزن والأسى لأنه كان يعرف ما ينتظرهم في الآخرة من عذاب مهين خالد باقٍ.

لذلك كان ـ لأنه رحمةٌ للعالمين ـ يريد أن ينقذهم من المصير الذي ينتظرهم.

الحق سبحانه يخبره هنا بأن هؤلاء وإنْ خرجوا عن مراد اللّه الشرعي الذي أراده لهم بالإيمان به واتباع منهجه، فإنهم لم يخرجوا عن مراد اللّه الفعلي؛ لأن اللّه سبحانه أراد لهم أنْ يكونوا مختارين في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا، يطيعوا أو يعصوا، فأعطاهم الاختيار في أنْ يفعلوا أو لا يفعلوا.

هذا الاختيار نابع عن إرادة اللّه سبحانه وتعالى.. ولولا تلك الإرادة ما كان هؤلاء مختارين في أنْ يطيعوا أو يعصوا.. إذن: فلا شيءَ في الكون يخرج عن إرادة اللّه سبحانه وتعالى.

وصف الشيطان:

إننا قبل أن نمضي.. لا بد أن نُبيِّن الفرق بين وصف الشيطان.. وبين

الشيطان نفسه.. فالشيطان كوصف عام معناه كل مَنْ يُبعد الناس عن طاعة اللَّه وعن منطق الحق، وكل مَنْ يُغري بالمعصية، ويحاول أن يدفع الإنسان إلى الشر.. كل واحد من هؤلاء هو شيطان.

ويجب أن نعلم أن هناك شياطين من الجن.. وشياطين من الإنس.. يجمعهم وصف واحد، كما يجمعهم الاتحاد في المتعة التي هي نشر المعصية والإفساد في الأرض.. شياطين الجن هم العصاة من الجن الذين يصدون عن الحق ويدعون الى الكفر، وشياطين الإنس يقومون بنفس المهمة.

إذن: فاللفظ هنا وصف لمهمة معينة.. وليس إشارة إلى شخص باسمه، فكل مَنْ دعا إلى الكفر والشرك والعصيان هو شيطان.

أما إبليس فهو شيطان من الجن وكانت له منزلة عالية حتى قيل إنه كان يعيش مع الملائكة.. إبليس هذا هو خَلْق من خَلْق اللَّه، ولكنه يختلف عن الملائكة في أنه خُلِقَ مختاراً، وهو لا يستطيع أن يتمرد على أمر اللَّه وإنْ أُعْطي حقَّ الاختيار، وإنما يستطيع بما له من اختيار أن يتمرد على الطاعة.

لهذا كان خروج إبليس عن طاعة اللَّه.. ليس تمرداً على أمر اللَّه.. لكنه عدم طاعة اللَّه بمشيئة اللَّه سبحانه وتعالى التي شاءتْ أنْ يخلقه مختاراً.. قادراً على الطاعة.. وقادراً على المعصية.

هذه المشيئة هي التي نفذ منها إبليس.. وينفذ منها كل عاصٍ بعدم طاعة اللَّه.. وهذه نقطة لا بدَّ أن نفهمها.. قبل أن نمضي في الحديث عن الإنس والشيطان.. فلا شيءَ في كَوْن اللَّه سبحانه وتعالى يتمرد على أمر اللَّه.

لكن اللَّه خلق خَلْقاً مقهورين على الطاعة (هم الملائكة)، وخَلْقاً مختارين في أن يطيعوا أو يعصوا هم (الإنس والجن) ومن خلال هذه الإرادة ـ إرادة اللَّه سبحانه وتعالى ـ في أن يخلق خَلْقاً قادرين على الطاعة وعلى المعصية.. جاءت المعصية على الأرض.

على أن هناك حديثاً طويلاً عن معصية إبليس.. بعضهم يقول: كيف يُحاسَبُ إبليس لأنه رفض أنْ يسجدَ لغير اللَّه؟.. واللَّه أمر إبليس أن يسجد لآدم.. وإبليس رفض أن يسجد لغير اللَّه!!

الذين يُشيعون هذا الكلام، من الملحدين وغيرهم. نقول لهم: إنكم لم تفهموا معنى العبادة.. فالعبادة هي إطاعةُ المخلوق لأوامر خالقه.. ومن هنا فإننا عندما يقول اللَّه سبحانه وتعالى لنا أن نصلي خمس مرات في اليوم.. فالصلاة هنا تكون عبادة وطاعة للَّه.. وكذلك كل ما أمر اللَّه به.. عبادة اللَّه هي طاعته.. وعصيان أمر اللَّه هو معصيته.

ونحن لا نناقش الأمر مع اللَّه سبحانه، وإنما نطيعه. فلا نقول مثلاً: لماذا نصلي خمس ركعات ولا نصلي أربعاً أو ثلاثاً أو اثنتين؟ لا نردّ أبداً الأمر على اللَّه، لكننا نطيع حتى ولو لم نعرف الحكمة، حتى ولو لم ندرك السبب، لأن العلةَ في العبادة هي أنها من الآمر. أي: من اللَّه سبحانه.

مهمتنا أن نستوثق أن الأمر من اللَّه، وما دام الأمر من اللَّه فالعلة في تنفيذ الأمر أو السبب في تنفيذه أن اللَّه هو الذي قال، أما غير ذلك فليس للمناقشة.

ومهمة العقل البشري هي الاستدلال على أن لهذا الكون إلهاً خلقه وأوجده.. وأن هذا الإله هو الذي خلقنا.. وخلق نظاماً غاية في الدقة والإبداع.. وكوناً غاية في الإعجاز لا يمكن أنْ يُوجد إلا بخالق عظيم.

فإذا وصلنا إلى هذه النقطة يكون هذا بداية الإيمان.. ولكن عقولنا القاصرة.. وقد وصلت إلى هذا الحد.. لا يمكن أن تتجاوزه، وهي لا يمكن أن تعلم مثلاً: مَنْ هو هذا الخالق العظيم؟ وما اسمه؟ وماذا يريد منا؟ ولماذا خلقنا؟

وهنا يأتي دور الرسل ليكتمل كل شيء.. يرسل اللَّه سبحانه وتعالى رسولاً.. مُؤيَّداً بمعجزة من السماء.. تخرق قوانين الكون التي تفوق قدرات الإنسان ملايين المرات.. كالشمس مثلاً والبحار والنجوم وغير ذلك.. كل هذه القوى مُسخَّرة لخدمة الإنسان.

الشمس تشرق كل صباح لا تستطيع أن تعصي.. ولا أنْ تقول: لن أشرق اليوم.. والبحار يتبخر منها الماء الذي ينزل منه المطر.. فلا هي عصتْ يوماً.. وقالت إن مياهي لن تتبخر.. ولا هي تستطيع أن تمنع تبخُّر مياهها ليمتنع المطر عن الأرض.

إذن: مهمة الرسل هي إخبارنا بأن اللَّه خلق كلَّ هذا الوجود وسخَّره لنا وأنه يريد منا أنْ نعبده.. ونفعل كذا وكذا.

أي: أنهم يحملون إلينا منهجَ عبادة اللَّه.. واللَّه سبحانه وتعالى يؤيدهم بمعجزات.. نعلم جميعاً أنها فوق قدرات البشر.. كل البشر.. حتى نتأكد من أنهم فعلاً رسل اللَّه، وحتى لا يأتي مُدَّعٍ أو شيطان أن يدَّعي الرسالة ليُضلَّ الناس.

فإذا عرفنا ما يريده الحق جلَّ جلاله منا، فإن علينا السمع والطاعة.. والسمع والطاعة سببهما أن الأمر صادرٌ من اللَّه جل جلاله.. فهو بعلمه يعلم ونحن لا نعلم.. وبحكمته يعرف صلاح كونه، ونحن بحُمْقنا قد نفعل الشر ونظن أنه خير.

اللَّه سبحانه بكل صفات كماله.. واجب العبادة.. والإنسان إذا ناقش فإن من البديهي أن يناقش مُساوياً له في علمه.. فالطبيب يناقش طبيباً.. والمهندس يناقش مهندساً.. ولكن الطبيب لا يناقش في الطب نجاراً مثلا أو سبّاكاً.. فإذا كان النقاش ـ لكي يكون مُجدياً ـ يجب أن يتم بين متساويين، فمَنْ منا يساوي اللَّه جل جلاله في: علمه أو في قدرته، أو في أي علم من العلوم حتى نناقشه فيما أمر أو نهى؟!

واقرأ قول اللَّه عز وجل في كتابه الكريم:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

واقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

بداية المعصية:

إذن: فعبادة اللَّه هي طاعة أوامره.. ومخالفة أوامر اللَّه تعالى هي: المعصية، وهي الفسوق، وهي الطريق الى الكفر والعياذ باللَّه.. ومن هنا فإن

العبادة هي إطاعةُ المخلوق لأوامر خالقه. وإبليس عصى أمر اللَّه.. فلا تكون تلك عبادة.. ولكنها معصية وكفر.

يروي لنا اللَّه سبحانه في القرآن الكريم بدايةَ معصية إبليس فيقول تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

كانت هذه هي بداية المعصية، بداية كفر إبليس، إنه رفض إطاعة أوامر اللَّه ولم يسجد لآدم فهو لم يرفض السجود لغير اللَّه، ولكنه رفض السجود لأمر اللَّه، وهذا هو الفرق لأن رفض إطاعة أمر اللَّه معصيةٌ وكفر.

إن البعض يثير.. أن الأمر هنا صدر للملائكة.. ولم يصدر لإبليس.. فكيف يحاسب اللَّهُ تبارك وتعالى إبليس على أمر لم يصدر إليه؟

نقول: إنه وإنْ كان إبليس من الجن.. إلا أنه رفض الأمر.. وفي ذلك يخبرنا الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ...﴾.. [الكهف: ٥٠].

وفي قوله ـ تبارك وتعالى ـ مُوجِّهاً حديثه إلى إبليس:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقوله سبحانه:

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

هكذا نرى بنصِّ القرآن أن الأمر قد صدر إلى إبليس بالسجود وأن الأمر قد شمله، وذلك حتى لا يُقال: كيف يُحاسب اللَّه إبليس على أمر لم يشمله؟!

حقيقة إبليس:

إن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة، لأن الملائكة لا يعصون اللَّه، ولأن الجن لهم اختيار كالإنسان تماماً.

إن بعض العلماء يقسمون الأجناس المختارة إلى ثلاثة أقسام: الشياطين،

والجن والإنس.. ونقول لهم: إن هذا التقسيم غير صحيح، لأن الجنسين المختارين من خلق اللَّه.. هما الإنس والجن.

وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

وفي سورة الجن، نقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

هكذا نرى أن الجن منهم مَن هو صالح ومَن هو فاسق.. وأن فسقة الجن هم الشياطين، أما ما يُقال عن أن هناك جنساً ثالثاً أو رابعاً مما أخبرنا اللَّه عنه فنقول لهم: لا ليس هناك إلا الإنس والجن مختارين، وكما أخبرنا اللَّه.

إذن: إبليس من الجن.. عصى اللَّه سبحانه وتعالى في أمر السجود لآدم.. وفي ذلك نقرأ قول الحق جل جلاله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ..﴾.. [الكهف: ٥٠].

وهكذا كانت معصية إبليس.. برفضه أمر اللَّه سبحانه وتعالى في السجود لآدم. ولكن هذا الرفضَ من إبليس مجرد سَهْو أو خطأ ندم عليه؟ أم كان رفضه استكباراً بالغرور الذي دخل نفسه؟ والكبر الذي ملأ صدره؟

لقد كانت معصيةُ إبليس غروراً وكِبْراً وإصراراً على المعصية، فهو لكِبْره وغروره ردّ الأمر على الآمر وهو اللَّه سبحانه، فيروي لنا القرآن الكريم عنه أنه قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فكأن إبليسَ ردَّ الأمر على اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: كيف تريدني أن أسجدَ لإنسان مخلوق من طين وأنا مخلوق من نار؟

إنه يريد أنْ يُبرّر معصيته وفسوقه بأن النارَ عنصرٌ أرقى من الطين.. لأن فيها شفافية.. والمخلوق من نار يمتاز عن المخلوق من الطين بأشياء كثيرة.. إنه يمتاز عليه بسرعة الحركة وخفَّتها، ويمتاز عليه أيضاً بأنه يستطيع أنْ يصعدَ إلى مسافات عالية.. وأنه يخترق الجدران.. ويدخل الأماكن المغلقة.. التي لا يستطيع أن يدخلها الإنسان.

لا فضلَ لعنصر على آخر:

إبليس أخذ من هذه العناصر ـ بكفره وغروره ـ حجة أنه هو الأعلى.. هكذا صوَّر له غروره.. فاعتقد أنه هو الأفضل، ونسي أن هذه الميزات كلها لم يحصل عليها بذاته ولا بنفسه، بل اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي وضع هذه الميزات في المادة التي خلق منها الجن، ولولا أن الحق سبحانه وتعالى أوجد هذه الميزات في المخلوق من النار.. ما كانت قد وُجدت.

إذن: فالفضل في ذلك ليس للعنصر الذي خُلق منه إبليس، ولكن الفضل للذي أوجد هذه المواصفات في عنصر النار.. وأن اللَّه تبارك وتعالى إنْ شاء سلب النارَ كلَّ هذه العناصر.. فيصبح إبليسُ أحطَّ خَلْق اللَّه.

وكانت هذه أولى درجات الكفر والغرور والكبرياء من إبليس.. إنه نسب الفضل لذاته.. بأنه مخلوقٌ من عنصر أعلى من الطين.. وهو النار.. تماماً كما فعل قارون حين قال كما يروي القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.. [القصص: ٧٨].

فكان جزاؤه أنْ خسف اللَّهُ به وبداره الأرضَ.

وتمادى إبليسُ في معصيته، كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

وهنا لنا وقفة ثانية في قول إبليس كما روى لنا القرآن الكريم: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾، فكأن الغوايةَ حدثتْ من اللَّه سبحانه وتعالى.. فكيف يُحاسب إبليسَ، مع أن اللَّه جلَّ جلاله هو الذي أغواه؟

نقول: إن إبليسَ استحقَّ الغواية لما كسبت يداه، ولقد دخل الكبْر إلى نفسه.. واعتقد أنه قد أخذ كل ما أخذه.. سواء من عناصر تكوينية أو على علم من ذاته، فتركه اللَّه سبحانه وتعالى لغروره.. فغوى. فكأن البداية كانت من الشيطان.. فاستحق أنْ يتركه اللَّهُ لنفسه ولغروره.. فوقع في الكفر.

ذلك أن الحقَّ جلَّ جلاله يقول لنا في القرآن الكريم:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وإبليس فسق وكفر.. فسق بأنه عصى أمر اللَّه في السجود، والفسوق معناه البُعْد عن المنهج.. يُقال: فسقتْ الرطبة عندما يصبح البلح رُطَباً.. البلح وهو أحمر تلتصق قشرته بالثمرة.. فلا تستطيع أن تنزعها.. فإذا أصبح رُطباً ابتعدتْ القشرة عن الثمرة.. وأصبح من السهل نزعها.. وهنا يُقال: فسقتْ الرطبة. أي: انقطعتْ قشرتُها عن قمرتها.. والفسوق ابتعاد عن المنهج.

واللَّه سبحانه وتعالى أبلغنا أن إبليسَ فسق وكفر.. في قوله جل جلاله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.. [الكهف: ٥٠].

واللَّه تبارك وتعالى ترك إبليس لنفسه، فغوى وسقط في المعصية والكفر ذلك أن اللَّهَ لا يظلم أحداً.. ولكن الظلم يأتي من النفس. وعندما يظلم المخلوقُ نفسه.. ويتخذ طريق الكفر.. فإن اللَّه يتركه للطريق الذي اختاره.. فما دام قد اختار الكفر.. فاللَّه غنيٌّ عنه، لأن اللَّه غنيٌّ عن خَلْقه جميعاً.

ما بعد الغواية:

عندما سقط إبليسُ في الغواية.. وعرف أنه بكفره قد طُردَ من رحمة اللَّه.. وأصبح محكوماً عليه بالعذاب الأبدي.. طلب من اللَّه أنْ يُمهله إلى يوم القيامة.. وألّا يقبض روحه إلا ساعة أنْ يُنفخ في الصور. وقال كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩].

ويُلاحظ هنا أن إبليسَ استخدم كلمة ﴿رَبِّ﴾ ولم يَقُل: إلهي. لأنه خاطب اللَّه بأنه ربُّ العالمين. أي: رب كل مَنْ خلق، المؤمن منهم والكافر.

إن اللَّه سبحانه وتعالى له عطاءان: **عطاء ربوبية** في أنه ربٌّ للجميع.. هو الذي خلقهم واستدعاهم للوجود.. ولذلك فإنه يعطي عطاء ربوبيته للمؤمن به والكافر والعياذ باللَّه.. وهذا عطاءٌ في الدنيا فقط.. يرزق المؤمن ويرزق الكافر.. ويَدُ اللَّه الممدودة بالأسباب أعطتْه الأسبابَ.

فالذي يُحسن زراعة الأرض بأحسن الوسائل، تعطيه محصولاً وفيراً، سواء كان مؤمناً أو كافراً.. والذي يأخذ بأسباب التقدم ويدرس ويبحث.. تعطيه الأسباب في التقدُّم الذي عمل من أجله.. هذا في الدنيا فقط.

أما عطاء الألوهية . . فهو لمَنْ آمن باللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ هو واحدٌ أحدٌ، لا شريكَ له . . هذا هو عطاء الألوهية الذي يعطيه اللَّه تبارك وتعالى للمؤمنين به في الآخرة . . حيث تنتهي دنيا الأسباب . . ويصبح كل شيء من المُسبب مباشرة . . من اللَّه لعباده المؤمنين . . بمجرد أنْ يخطرَ الشيءُ على بالهم يجدونه أمامهم . . بلا أسباب وبلا عمل .

إن الشيطان . . هو كل مَنْ يدعو إلى البُعْد عن عبادة اللَّه . . والبعد عن منطق الحق . . ويَحضّ على المعصية مهما كان جنسه . . إن إبليسَ خَلْقٌ من خَلْق اللَّه . . تمرّد على منهج اللَّه . . بما أعطاه اللَّه من حرية الاختيار في أن يطيع أو يعصي، وفي أنه ردّ الأمر على الآمر، وهو اللَّه سبحانه وتعالى، فكفر بذلك العصيان، ثم تمادى في الكفر . . وطلب من اللَّه سبحانه وتعالى أنْ يُبقيه حتى تقوم الساعة .

ولكن . . لماذا طلب إبليسُ هذا الطلبَ؟ وما الذي كان يدور في عقله بالنسبة للإنسان؟

معصية الشيطان :

قبل أنْ أذكرَ قصة عداء إبليس لآدم وذريته . . وكيف يُوسوس لهم ويُغريهم بالسوء . . لا بُدَّ لنا من وقفة عند معصية إبليس . . تلك المعصية التي استحقَّ عليها لعنة اللَّه إلى يوم القيامة .

إبليس عندما رفض طاعةَ أمر اللَّه بالسجود لآدم لم يحاول التوبة أو الرجوع إلى الحق، لم يقل: يا رب إن قولك حق . . وأمرك حق . . ولكني يا ربّ لم أقدر على نفسي فسامحني، لم يُفِقْ لنفسه ويخرّ ساجداً، بل إن الكبرَ كان قد ملأه، فمضى في المعصية .

يقول الحق سبحانه كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] .

وهكذا ردَّ الأمر على اللَّه سبحانه وتعالى، وكأن اللَّه جلَّ جلاله قد غاب عنه أنه خلق الجانَّ من نار، وخلق الإنسان من طين . . وكان هذا كافياً لطرْد

إبليس من رحمة اللَّه، وطرده من المكان الذي كان يعيش فيه مع الملائكة.. وهنا قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقوْل الحق سبحانه: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ معناها أن إبليس كان في مكان عَالٍ قبل المعصية.. فلا يكون الهبوط إلا من مكان عَالٍ إلى مكان منخفض، بعض الناس يأخذون الهبوط على أساس أنه يعني المسافة.. ولكن الهبوطَ قد يكون معنوياً.. فالإنسان مثلاً.. إذا كان رئيساً أو حاكماً.. ثم أُقْصي عن مكانه.. فقد هبطت منزلته.. رغم أنه ما زال يعيش في البيت الذي عاش فيه.. أي: أنه لم يهبط من أعلى إلى أسفل من ناحية المسافة، ولكن مكانه هبط.. وبعد أنْ كان مقامه عالياً.. أصبح لا يساوي شيئاً ولا قيمةَ له.

ويمكن أن يكون الهبوطُ من ناحية القيمة. أي: أنك تؤمن أن إنساناً ما ذو قيمة عالية.. تراه يحترم نفسه.. لا يقول إلا الحقَّ.. مُهابَ الجانب.. وفجأة يرتكب عملاً شائناً يجعله يسقط في نظرك.. فلا تحترمه ولا تقيم له وزناً.

إذن: الهبوط ليس بالضرورة.. هبوطاً مادياً في المسافة.. ولكنه قد يكون هبوطاً في القيمة، وفي المكانة، ولذلك فإن إبليس ليس من الضروري أنه كان يعيش في الجنة، وهبط منها كما يقول بعض المفسرين.

أو أنه كان يعيش في مكان عَالٍ من السماء.. بل من الممكن أن يكون نزولاً معنوياً.. بحيث أصبح لا يساوي شيئاً.

الكبرياء للَّه وحده:

اللَّه سبحانه وتعالى حين قال له: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أعطانا سببَ هذا الهبوط في قوله تعالى: ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾، أي: أن السبب هو أن إبليس قد ملأه الكبر والغرور.. واللَّه سبحانه وتعالى لا يحب المتكبرين.. وكل مَنْ أخذه الكبرُ.. ويعتقد أنه بذاته ونفسه يستطيع أنْ يُحقِّق شيئاً بعيداً عن قدرة اللَّه سبحانه وتعالى. يناله غضبٌ شديدٌ من اللَّه.. لماذا؟

لأن الفعل في هذا الكون كله للَّه جلَّ جلاله.. فلا أحدَ يملك قدرات

الفعل إلا اللَّه.. فلكلِّ فعل ظرف زمان، وظرف مكان لا بُدَّ أنْ يقع فيهما.. وأنت لا تملك الزمان ولا المكان، فلا أحدَ يملك القدرة ليُبقي حياته ولو دقيقة واحدة.. ولا أحدَ يملك القوة ليتحرك من مكان إلى آخر.. إلا بإذن اللَّه وأمره، وقد يأتيه الأجل قبل أنْ يتحرَّك.. وقد يأتيه المرض ليشلَّ قدرته عن الحركة.

فكيف يتكبر الإنسان.. أو أيّ مخلوق من مخلوقات اللَّه، وهو لا حولَ له ولا قوةَ إلا بأمر اللَّه؟!

اللَّه سبحانه وتعالى طرد إبليسَ من المكان أو المقام الذي كان فيه، لأنه تكبَّر واغترَّ، واعتقد أنه يملك القوة الذاتية والقدرة الذاتية.

ولذلك يقول الحق تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

أي: أنه إذا كان لك كبر أو قوة أو ذاتية فابْقَ في مكانك.. ولكنك ستخرج وأنت صاغر.. ستخرج رَغْماً عن أنفك ولا تستطيع المكابرة.. ولا يمكنك أنْ تدَّعي أن لك قوةً تحميك.. أو تجعلك تستطيع أنْ تخالف أمرَ اللَّه، بل ستخرج ذليلاً صاغراً مهيناً.

عندما أدرك إبليسُ أن الكبرَ الذي ملأ نفسه هو كبرٌ زائفٌ، وأنه في الحقيقة لا يساوي شيئاً في ذاته.. امتلأ قلبُه بالحقد على آدم، لأنه اعتقد أنه السببُ في كل ما حدث له في طرده وفي هبوطه إلى أسفل السافلين.. وفي غضب اللَّه سبحانه وتعالى عليه.

والحقد الذي ملأ قلبَ إبليس دفعه إلى محاولة الانتقام من آدم وذريته.. فكما قاده عدمُ إطاعة أمر اللَّه بالسجود لآدم إلى النار.. ثأراً منهم لمَا حدث له.. وكما طرد إبليس من رحمة اللَّه.. إنه يريد الانتقامَ من آدم.. لأنه كان السببَ في كل ما حدث.. من لعن وطرد لإبليس وكل مَنْ تبعه، إنه لا يريد أنْ يدخلَ إلى النار وحده! وإنما يريد أنْ يحشدَ فيها مَنْ يستطيع إغواءه من الناس.

ولذلك عندما خرج إبليس صاغراً ذليلاً من المقام الذي كان فيه.. توجه إلى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ كما يروي لنا القرآنُ الكريم:

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

هكذا عاد إبليس إلى المذلَّة.. يطلب من اللَّه سبحانه وتعالى أنْ يُبقيَه حياً إلى يوم القيامة.. وقد كان يملؤه الكبرُ، ولو أن كبره كان حقيقياً وليس زَيْفاً.. ولو أنه كانت له أيُّ قوة ذاتية.. لَمَا طلب إلى اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُبقيه إلى يوم القيامة ولأبقى نفسه.. ولكن لأنه لا حَوْلَ له ولا قوةَ إلا ما شاء له اللَّه.. فإنه اتجه إلى اللَّه سبحانه وتعالى ليبقيه حيّاً إلى يوم القيامة.

ولكن، لماذا استجاب اللَّه تبارك وتعالى لدعاء إبليس.. وكان من الممكن أنْ يُهلكه في التوِّ واللحظة؟

لماذا قال اللَّه جل جلاله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٧، ٢٨].

لقد استجاب اللَّهُ دعاءه ـ وهو المطرود من رحمته ـ لأن حكمة خَلْق الدنيا لا تكتمل إلا بهذا.. فاللَّه سبحانه وتعالى خلق الدنيا كدار اختيار، وجعل الآخرة دار الجزاء.. واللَّه جلَّ جلاله يريد أنْ يمرّ عبده باختبار في الحياة الدنيا.. أنْ يمتحن قبل أن يجازى.. أن يكون شهيداً على نفسه يوم القيامة فيما فعل.. واقرأ قوْلَ الحق تبارك وتعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وقوله جل جلاله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ولو أراد اللَّه سبحانه وتعالى خلقاً مقهورين على الطاعة كالملائكة.. لاستطاع أن يخلقهم.. ولو أراد الحق سبحانه وتعالى.. أنْ يطيعَ أهل الأرض جميعاً منهج اللَّه.. وأنْ يكونوا جميعهم مُسبِّحين وعابدين لاستطاع أنْ يفعلَ ذلك.

ولكن اللَّه جلَّ جلاله اختار أجناساً تأتيه عن قَهْر كالملائكة وغيرها من خَلْق اللَّه.. واختار الإنس والجن دون غيرهم من الأجناس ليأتوه عن حب ورغبة.. يكونون قادرين على المعصية.

ولكنهم لا يفعلونها حباً للّه، ويكونون قادرين على عدم الطاعة.. ولكنهم يطيعون قرباً للّه.. إنه سبحانه وتعالى يريد خَلْقاً يأتيه عن حب.. في فترة اختبار محدودة بعُمْر كل إنسان.

إننا بعد حلول الأجل سنكون مقهورين لإرادة اللّه سبحانه وتعالى.. ذلك أن الإنسان وهو يحتضر تنتهي إرادته البشرية تماماً.. ولا تصبح له إرادة حتى على جسده.. لأن الإرادة كانت في الدنيا.. أما ساعة الموت.. وفي حياة البرزخ.. بين الموت والبعث ويوم القيامة، فلا توجد إرادةٌ لأحد.. فالكافر يُقَاد الى النار.. ويحاول أنْ يُوقف قدمه عن السير فلا تقف، ويحاول أن يدفعَ النار بيديه فلا تندفع، ويحاول أن يهرب من الوقوف أمام اللّه، ومن العذاب.. فلا يستطيع.. كل ما كان في الدنيا من حول وقوة قد انتهى.

الدنيا دار اختبار:

والحياة الدنيا ـ لكي يكون فيها اختبار ـ لا بدَّ أن يكون فيها إغواءٌ وغواية.. ومن هنا كان إبقاء الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لحياة الشيطان جزءًا من الإغواء.. الذي سيتعرَّض له الإنسان في حياته الدنيا.. اختبار من اللّه لحبه في قلوب عباده.. فمَنْ أحبَّ اللّه.. وَقَاهُ الحق سبحانه وتعالى من إغواء الشيطان، ومَنْ أحبَّ المعصية والكفر والعياذ باللّه.. سلط اللّه تبارك وتعالى عليه الشياطين.. لتزيده معصية وكفراً.

واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

وهكذا فإن اللّه سبحانه وتعالى.. يجعل الإنسان مع مَنْ أحبَّ.. فإن أحب اللّه تبارك وتعالى كان مع اللّه، فوقاه السوء وأبعد عنه الشياطين وحفظه من الشر، وفتح أمامه أبواب الخير.. وإنْ كان يحب الشيطان تركه للشياطين التي هي عدو له.. تقوده إلى المعصية.. وتجعل حياته شقاءً مستديماً ويزداد إثماً على آثامه، ثم لا يأخذ معه شيئاً إلا ذنوبه.

وحتى تكتمل تجربة الحياة على الأرض كان وجود الإغراء من الشيطان ضرورياً.. وحتى يختبر اللّهُ عباده اختباراً إيمانياً حقيقياً، ويُمحِّص ما في قلوبهم، كان لا بدَّ من تجربة واقعية يمرُّ بها الإنسان في حياته.. وليست

تجربة نظرية لأن الكلام النظري شيء، والواقع شيء آخر.. فقد تقول سأفعل كذا وكذا.. وعندما يأتي وقت الفعل قد لا تفعل.

والإنسان حين حمل الأمانة.. وعد أنه سيؤديها حقَّ أدائها.. وعندما جاء وقت الأداء.. أخذتْهُ الدنيا بإغوائها وإغرائها.. فاتبع الشيطانَ.. ونسي عهده للَّه، ونسي منهج اللَّه.

فلا يظن أحد أن اللَّه سبحانه وتعالى قد أجاب دعوةً للشيطان.. ولكنه جل جلاله.. بما أعدَّ للدنيا من منهج.. وبما أعدَّه لحياة الإنسان من ابتلاءات واختبارات.. أراد أن تتم الصورة كلها.

إذن: فالإجابة كانت لمراد اللَّه سبحانه وتعالى.. وليست استجابةً لدعاء الشيطان أنْ يبقى إلى يوم البعث ولا يقبضه إليه قبل ذلك اليوم.. ليظلَّ الإغواء في الدنيا حتى آخر لحظة.. والابتلاء للإنسان مستمر إلى يوم القيامة.

عندما قضى اللَّه سبحانه وتعالى لإبليس أن يبقى إلى يوم القيامة.. عاد الغرور إلى نفسه مرة أخرى، وأحس أن هذه هي فرصته.. لينتقمَ من آدم وذريته.. وقال الحق ـ جل جلاله ـ كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

كيف دخل الشيطان إلى باب غواية الإنسان؟ وبماذا دخل؟ إذا قرأت الآية الكريمة التي تحكي مقالة الشيطان للَّه عز وجل:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

تعرف كيف دخل الشيطان إلى غواية الإنسان؟ دخل من باب عزة اللَّه سبحانه وتعالى.. وبأن الحق جلَّ جلاله عزيز لا يحتاج لأحد من خَلْقه. أي: أن إبليس قال: يا رب لو إنك أردتهم طائعين، ما استطعتُ أنْ أُغويَ واحداً منهم، ولكنك لأنك عزيزٌ على خَلْقك لا ترى طاعتهم في مُلْكك شيئاً، ولا تنقص معصيتهم في مُلكك شيئاً، فإنني بعزتك سأقوم بغوايتهم.. سأُزيِّن لهم المعصية.. سأقعد لهم على كل صراط مستقيم.

أما الطرق غير المستقيمة فلا حاجةَ للشيطان أنْ يقعدَ عليها.. إنه لا يجلس مثلاً على أبواب تناول الخمر، ولا على أبواب الأماكن التي تتم فيها

الفاحشة، فإن هؤلاء الناس الذين يرتادون هذه الأماكن التي تتم فيها الفاحشة قد أصبحوا جنوداً للشيطان، ليسوا محتاجين إلى إغواء.. ولا إلى وسوسة.

على أبواب المساجد:

إن الشيطان يجلس على أبواب المساجد وأماكن العبادة والذكر يحاول أن يُغريَ الناس على عدم الصلاة، فإذا أُذِّنَ للصلاة فإنه يحاول أنْ يُغريَ الإنسان بأيِّ شيء حتى لا يذهب إليها، فيُذكِّره بما نسي من أشياء دنيوية، ويُوسوس له ويُخوّفه بأنه إذا ذهب إلى الصلاة ربما فاته بيعٌ أو شراء أو مال أو مصلحة وأن العمل عبادة، وأنه.. إلى أن يصرفه عن الذكر والصلاة.

هناك قصة تُروى عن الإمام أبي حنيفة رضي اللَّه عنه وكان مشهوراً بالفتوى في أمور الدين.. فجاءه رجل وقال: ضاعتْ مني نقودي.. فقد دفنتُها في مكان من الأرض ونزل السيلُ فأخفى مكان النقود.. وأزال الحجر الذي وضعته علامة على المكان، ولا أدري ماذا أفعل؟

فقال الإمام أبو حنيفة: وبماذا أفتيك في هذا الأمر؟ ولكن الرجل ألحَّ فقال له الإمام: اذهب الليلة بعد صلاة العشاء، وقِفْ أمام ربك متهجداً إلى أن يطلع الفجر.. وقل لي: ماذا سوف يحدث.

وعندما جاءت صلاة الفجر جاء الرجل مُتهللاً، وقال: لقد وجدتُ مالي، فسأله أبو حنيفة: كيف؟ قال الرجل: ما كدتُ أقف للصلاة حتى تذكَّرت أين مكان النقود.. ومتى نزل السيل.. وكيف سار.. وهكذا قِسْتُ المسافة وقدرتها.. فعرفتُ موقع النقود.. فضحك الإمام أبو حنيفة رضي اللَّه عنه وقال: واللَّه لقد علمتُ أن الشيطان لن يدعك تتم ليلتك مع ربك.

وهكذا عندما عرف الشيطان أن هذا الرجل سيقوم ليلته مع اللَّه.. أسرع إليه ليرشده عن مكان المال.. حتى يمنعه من الاستمرار في ذكر اللَّه، وهذا هو أحد معاني ما جاء في القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

ثم نمضي فيما يرويه القرآن الكريم:

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

إننا إذا تدبَّرنا هذه الآية الكريمة نجد أن الشيطان.. قد حدد أربع جهات يأتي منها إلى الإنسان: اليمين واليسار والأمام والخلف.. والمعروف أن الجهات هي ست: اليمين، واليسار، والأمام، والخلف، وأعلى، وأسفل.. فلمَ يأتي الشيطانُ للإنسان من كل الجهات، وترك الأعلى والأسفل؟!

ونجيب على ذلك بأن الأعلى هو مكان صعود الدعاء.. وصعود الأعمال الصالحة للَّه سبحانه وتعالى.. والأسفل هو مكان السجود للَّه جل جلاله.. وكلاهما لا يستطيع الشيطانُ الاقترابَ منه، فمكان السجود للَّه والخضوع له لا يقربه الشيطان.. وكذلك مكان صعود الدعاء والعمل الصالح.. فهذان المكانان مباركان لكل مؤمن، تحفُّهما الملائكة ولا تقربهما الشياطين.

لكن لا بدَّ لنا أن نقف عند قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

من الذي أنبأ الشيطان وأعلمه أن أكثرَ الناس لن يكونوا شاكرين للَّه على نعمه وفضله.. واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

هل أُوتِيَ الشيطانُ من علم الغيب.. ما جعله يعرف أن أكثر الناس لن يكونوا شاكرين.. أم أنه كان واثقاً من نفسه وُثوقاً جعله يقول هذا الكلام؟!

فالشيطان لا يعرف الغيب.. ولم يُؤْتَ هذا العلم حتى يقول: إن أكثر عبادك لن يكونوا شاكرين.. كما إنه لم يكُنْ لديه من العلم ما يجعله جازماً وواثقاً من أن ذلك سيحدث نتيجة إغوائه للإنسان.

إن القرآن الكريم يكشف لنا كيف قال الشيطان هذا الكلام، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

إذن: فقد كان ما قاله إبليسُ ظناً فقط.. فلم يكُنْ يعلم غيباً.. ولا يدري ما سيحدث في المستقبل.. وجاء حكم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على إبليس ومَنْ تبعوه، كما يقول ربُّ العزة في كتابه الكريم:

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

وهكذا طُرِدَ إبليس.. من رحمة اللَّه ومن الجنة.. ومن أيِّ مكان فيه قرب من اللَّه.. وأصبح مذموماً ملعوناً.. ليس هو فقط.. ولكن هو وكل مَنْ تبعه من الجن والإنس.. مصيرهم جميعاً هو الخلود في النار.

فاللَّه عز وجل أعدَّ لكل عبد من عباده ـ من الإنس والجن ـ مكاناً في الجنة ومكاناً في النار.. حتى إذا عصى الخلقُ جميعاً وَسعَتْهم النارُ.. وإنْ أطاع الخَلْق جميعاً وَسعتهم الجنة.. ويوم القيامة فإن أصحاب الجنة يرثون ـ فوق ما أعده اللَّه لهم من الجنة ـ الأماكنَ المُخصَّصة لمن قضى اللَّه سبحانه وتعالى عليه بالعذاب في جهنم يوم القيامة، والعياذ باللَّه بعد ذلك.

لقد أراد اللَّه سبحانه وتعالى بعد أنْ أنظر إبليسَ إلى يوم القيامة أن يُحصِّن آدم، ويُعرِّفه التجربة التي هو مُقدمٌ عليها.. ويُبيِّن له كيف أن الشيطان عدو له.. وكيف أنه سيُغريه على المعصية.. وكيف أنه سيعده كذباً.. ولن يُحقِّق وعده.

وأراد الحق تبارك وتعالى أنْ يُتمَّ ذلك تجربة يمر بها آدم وحواء، حتى إذا نزلا إلى الأرض كانت هذه التجربة وقايةً لهما من إغواء الشيطان، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وهكذا أعدّ اللَّه تبارك وتعالى مكان التجربة لآدم وحواء، في جنة فيها كل أسباب الحياة.. بلا تعب ولا جهد.. وفَّر لهما الطعام من ثمار مختلفة.. ووفَّر لهما الشراب.. وفتح لهما من النعيم كلَّ ما يشتهيانه.. وأباح لهما كل ثمر الجنة، ما عدا شجرة واحدة.. طلب منهما ألَّا يقتربا منها.

إنها حياةٌ مريحة مليئة بالنعم المباح فيها كثير، والممنوع منها أقل القليل، شجرة واحدة هي الممنوعة.. وحذرهما اللَّه سبحانه وتعالى من أن الشيطان عدوٌّ لهما، وطلب منهما ألَّا يستمعا إلى ما يقوله لهما، لأنه يريد بهما السوء، ولا يريد لهما الخير.. فما الذي حدث؟

إنه رغم كل هذا التحذير.. ورغم أن المباح كثير والممنوع هو شجرة واحدة.. فإن الشيطان استطاع بإغوائه أنْ يُوقِعَ آدم وحواء في المعصية.

بعض المفسرين يقولون: إن حواء هي التي وقعتْ في المعصية أولاً.. ثم أوقعتْ آدم.. وأنها هي السبب في خروج آدم من الجنة.. فهل هذا صحيح؟ وهل حواء هي التي تحمل المعصية الأولى في خروج آدم من الجنة.. أم أن هذا غير صحيح.. وما هي الحقيقة؟وماذا حدث؟

وقبل أن نُجيب على هذه الأسئلة.. نُجمل ما قلناه من أن الكِبْرَ قد ملأ إبليس.. فجعله يغترّ بنفسه.. ويردُّ الأمر على اللَّه سبحانه وتعالى، ويقول: خلقتني من نار وخلقته من طين.. يريد أنْ يُبدِّل أمر اللَّه، فلعنه اللَّهُ وطرده من رحمته، وجعله من أهل النار هو وكل من اتبعه، ولكن إبليس اتخذ مدخلاً ليُغوي آدم وذريته.. وهذا المدخل هو أن اللَّه تبارك وتعالى عزيزٌ غنيٌّ عن خَلْقه جميعاً: لا يضره مَنْ ضلَّ.. ولا ينفعه مَنْ آمن.

من هذا المدخل دخل إبليسُ إلى غواية بني آدم.. واللَّه سبحانه وتعالى جعل الدنيا دار اختبار، ولذلك كان لا بدَّ من الغواية، ليعلم اللَّه الصادقين في إيمانهم (علمَ شهادةٍ) ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة.

لقد شاءتْ إرادة اللَّه أن يدخل آدم في تجربة عملية في إغواء الشيطان.. ليحذره ويعلمه مما سيُلاقيه في الحياة الدنيا.. فكيف تمت هذه التجربة؟

آدم والشيطان:

طرد اللَّه سبحانه وتعالى الشيطان، وأخرجه مما كان فيه.. والخروج هو مجاوزة المكان أو مغادرته.. والشيطان خرج مطروداً وملعوناً ومذموماً.. واللَّه سبحانه وتعالى وعد كلَّ مَنِ اتبع الشيطان بالعذاب في النار.

إن اللَّه جل جلاله قد أعدَّ في الجنة ـ كما قلنا ـ أماكنَ لكل خَلْقه.. من خَلْق آدم إلى قيام الساعة.. وأعدَّ في النار أماكن لكل خَلْقه.. من خَلْق آدم إلى قيام الساعة.. فلو أطاع كلُّ الخَلْق لوسعهم نعيمُ اللَّه في الجنة، ولو عصى كلُّ الخلق لنالهم عذابُ اللَّه في النار.

ولو شاء اللَّهُ أن يقومَ آدمُ وحواء بتجربة عملية على كيفية مواجهتهما وذريتهما وسوسة الشيطان.. وذلك حتى يكونوا مُحصَّنين منها.. ويعرفوا أن الشيطانَ كاذبٌ فيما يَعِدُ.. وأن الشيطانَ لا يأتي منه إلا الشرُّ والضرر وزوال النعمة.

اللَّه سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩].

ومن هذه الآية الكريمة نعرف أن آدمَ وحواء سَكَنا الجنة.. وكثيرٌ من العلماء قالوا: إن المقصود بالجنة في الآية الكريمة هي جنة الخلد في الآخرة.. مما دفع المستشرقين وغيرهم أن يتساءلوا: كيف يمكن أنْ يدخلَ إبليسُ جنةَ الطائعين للَّه ليوسوس لآدم وحواء ويُغريهما بالمعصية؟!

كيف يمكن لإبليس وهو عَاصٍ مطرودٌ من رحمة اللَّه.. ومحكومٌ عليه بالعذاب في النار.. أن يدخلَ جنة الخلد؟

ثم كيف يمكن لآدم وحواء.. أنْ يدخلا جنة الخُلد ثم يخرجا منها؟ مع أن اللَّه سبحانه وتعالى قد كتب أن كلَّ مَنْ يدخل الجنة يبقى خالداً فيها؟

نقول لهؤلاء جميعاً: إنكم لم تفهموا مدلول كلمة (جنة) في القرآن الكريم.. إن هناك شيئاً في اللغة العربية يسمى غلبة الاستعمال، ذلك أن اللفظ يكون له مَعَانٍ متعددة.. ولكنه يُؤخذ عادة على معنىً واحد.. إذا قاله الإنسانُ انصرف الذِّهْن إلى هذا المعنى بالذات.. من هنا فإننا عندما نسمع كلمة (جنة) ينصرف ذِهْنُنا إلى جنة الآخرة، لأنها هي الجنة الحقيقية.

ولكن اللَّه سبحانه وتعالى استخدم كلمة جنة في القرآن الكريم في معانٍ متعددة.. الجنة في اللغة معناها الستر.. ولذلك فهي تُطلق على المكان الذي فيه أشجارٌ غزيرة ومتنوعة.. بحيث إذا مشى الإنسان فيه سترتْهُ هذه الأشجارُ بأغصانها المتشابكة عمَّنْ هم خارج هذه الجنة فلا يروْنَهم.. وفي نفس الوقت فهو يجد فيها أسبابَ معيشته كاملة، ولذلك فهو لا يحتاج إلى الخروج منها.. هذا هو المعنى اللغوي لـ [الجنة].

ليست جنة الخلد:

فإذا بحثنا في القرآن الكريم وجدنا أن القرآنَ استخدم كلمة «الجنة» في أكثر من معنىً.. استخدمها بمعناها اللغوي (بمعنى الستر) وفي معناها الديني (جنة الآخرة).

وفي ذلك نجد آيات كثيرة بهذين المعنيين كقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢].

وقوله جل جلاله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

كل هذه الآيات الكريمة.. استخدم فيها الحق سبحانه وتعالى كلمة «جنة» وهو يعني جنة الدنيا.

ولقد قال بعض العلماء: إن اللَّه تعالى قد فرَّق بين جنات الدنيا وجنات الآخرة، فلفظ (الجنة) يُطلق على جنة الآخرة وحدها، ولفظ (جنة) من غير الألف واللام يُطلَق على جنات الدنيا.

ولكن هذا الكلام غير صحيح، بدليل اقتران الألف واللام بجنة الدنيا، كما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

والحديث هنا في هاتين الآيتين عن جنة أو حديقة من حدائق الدنيا. إذن: فالألف واللام لا يُميِّزان لفظ جنة.. بحيث يصبح المعنى هو جنة الآخرة.. ولا بُدَّ أنْ نقفَ هنا قليلاً عند بعض الأقوال التي تدَّعي أن آدم وحواء كانا يعيشان في جنة الخُلْد.. وعندما عَصَيا اللَّهَ طردهما من الجنة.. وأنزلهما ليعيشا في شقاء على الأرض.

نقول: إن هذا الكلام غير صحيح في إطلاقه، ذلك أن اللَّه سبحانه قبل أنْ يخلقَ آدمَ حدَّد مهمته في هذه الحياة.

واقرأ قوله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.. [البقرة: ٣٠].

إذن: قبل أن يتمّ خَلْق آدم.. كانت الغاية من خَلْقه أنه سيعيش في الأرض ويعمرها.

والنقطة الثانية هي أنه لو أن آدمَ قد طُردَ من الجنة لأنه عصى.. فما ذنبنا نحن حتى نرثَ المعصية ونرثَ الشقاء.. إن هذا يتنافى مع عدل اللَّه تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.. [فاطر: ١٨].

إن كلَّ إنسان يُحَاسَبُ عما فعله فقط.. ولا يُحَاسب عما فعله أبواه أو جداه أو أولاده، لأن الإنسان لا يحمل إلا حسناته أو معاصيه.. ومن هنا كان يمكن أن يكونَ آدمُ قد عاش في جنة الخلد.. ثم طُرِدَ منها، لأنه قد عصى وتحمَّلنا نحن نتيجة المعصية.. وورثناها وعُذِّبنا بها بأنْ طُرِدْنا من الجنة، لأنه لو لم يَعصِ آدمُ لَعشْنَا نحن في الجنة.. نقول لهؤلاء: إن هذا يتنافى مع عدل اللَّه الذي يأبى أنْ تورث المعصية.

ولكن.. لماذا جعل اللَّه سبحانه إقامةَ آدم وحواء بعد خلقهما في جنة؟

نقول: إن لذلك حكمة.. فآدم خُلِقَ ليتلقَّى المنهج من اللَّه.. افعل لا تفعل، وهذا المنهج فيه صلاح الحياة على الأرض.. فما قال عنه اللَّه سبحانه وتعالى: افعل.. إنْ لم تفعله فسدتْ الأرض، وما قال عنه: لا تفعل.. إن فعلتَه فسدتْ الأرض.

إن اللَّه تبارك وتعالى وضع آدم وحواء في هذه الجنة ليأخذا تجربة عملية عن تطبيق منهج اللَّه، وليأخذا تحذيراً عملياً عن مهمة الشيطان في إفساد منهج اللَّه، لأن مهمة الشيطان أن يدفعَ آدم وذريته ليفعلا ما نهاهما اللَّه ألَّا يفعلاه، وألا يفعلا ما أمرهما اللَّه جل جلاله بفعله.

فإنْ قال اللَّه لهما: لا تشربا الخمر.. سيُزيِّن لهما شرب الخمر، وإنْ قال اللَّه لهما: أقيما الصلاة.. زيَّن الشيطانُ لهما ترك الصلاة.. وهكذا.

لقد كانت التجربة بسيطةً في أدائها، عظيمةً في مدلولها.. كانت تدريباً

عملياً لآدم عليه السلام على ما سيحدث له إذا أطاع اللّه.. وعلى ما سيحدث له إذا أطاع الشيطان.

وهكذا جاء اللّه سبحانه وتعالى بآدم، ووفّر له كل مُقوِّمات الحياة في مكان أسماه الجنة.. فقال جلَّ جلاله لآدم:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩].

أول مناهج السماء:

الحق سبحانه وتعالى بيّن لآدم الميزات التي سيحصل عليها في هذا المكان الذي سيقيم فيه.. فقال جل جلاله: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

أي: في هذه الجنة طعامٌ يكفيك، وكساءٌ يسترك، وماء تجده دائماً فلا يصيبك الظمأ، وليس فيها تعب.. ثمارُ هذه الجنة مباحٌ لك، بل كل ما فيها مُباح لك، ما عدا شجرة واحدة لا تقترب منها، ولا تأكل من ثمارها.

إن هذا هو منهج اللّه في الأرض.. إنه جل جلاله يبيح لنا الكثير جداً، ويُحرِّم علينا أقلَّ القليل.. وحذَّر اللّه سبحانه وتعالى آدم وحواء من عدوهما إبليس، فقال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧].

وكان هذا التحذير كافياً لينتبه إلى عداوة إبليس، فلا يستمع إلى وسوسته ولا يصدق أكاذيبه.

لقد وفَّر الحقُّ جلَّ جلاله لآدم كل مُقوِّمات الحياة من غذاء، يعطيه ما يحتاجه جسده بدون فضلات، فاللّه سبحانه وتعالى يغذي الجنين في بطن أمه بالقدر الذي ينميه، ولا تخرج منه فضلات، لأن الغذاء على قدر النمو، وكان غذاء آدم في الجنة على قَدْر نموه.

ويجب أن ننتبه إلى أن الجنة التي عاش فيها آدم ليست هي جنة الخلد، لأن الحياة في جنة الخلد لا تأتي إلا بعد الحياة الدنيا، فهي جزاء لاتباع منهج

اللَّه في الدنيا، وأنها ليست سابقةً للحياة الدنيا، ولكنها لاحقةٌ لها وتأتي بعدها.

إذن: فالجنة التي عاش فيها آدم.. وهي مكان فيه كلّ ما تحتاجه وما تتطلبه، ولا بدَّ أن نلاحظ أن اللَّه سبحانه وتعالى قال لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ولم يقل لهما: «ولا تأكلا من هذه الشجرة».. لماذا؟

لأن اللَّه يريد أنْ يحميَ آدم وذريته من إغراء المعصية، فلو أن اللَّه جلَّ جلاله قال: لا تأكلا.. لَكانَ أباح لآدم وحواء أنْ يقتربا من الشجرة، ويجلسا إلى جوارها، ويتأملا ثمارها، وحينئذ كان يُغريهما شكلُ الثمار.. أو لونها أو رائحتها فيأكلان منها.

لكن الحق تبارك وتعالى أراد أنْ يحميَ آدم من نفسه.. ومن الإغراء الذي يمكن أنْ يتعرَّض له.. وقد لا تقوى نفسه عليه.. هذه الحماية التي أراد اللَّه أنْ يُوفرها لآدم وذريته من بعده هي الحماية الحقيقية من الوقوع في المعصية، لأنك إذا اقتربت من شيء حرّمه اللَّه تقبل نفسك إليه، وربما دفعك هذا القرب إلى اقترافه.

ونلاحظ أن الحق سبحانه يطلب منا ألَّا نقتربَ من قمم المعاصي، فيقول تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الحج: ٣٠].

ولم يقُلْ تبارك وتعالى: لا تعبدوا الأوثان.. فلو قالها لكان مُباحاً لنا أن نذهب إلى الأماكن التي تُعبد فيها الأصنام وأنْ نجلسَ فيها.. فإذا فعلنا ذلك ربما أوقعنا هذا الجلوس والعياذ باللَّه في عبادة الأصنام.

وكذلك اقرأ قول الحق جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.. [المائدة: ٩٠].

أي: لا تقربوا أماكنه.. والغريب أنك تجد بعض الناس يحاول أن يجادلك في أن اللَّه سبحانه وتعالى لم يحرم الخمر. ويقول لك: ائتني بآية من

القرآن الكريم يقول فيها تبارك وتعالى: حُرِّمتْ عليكم الخمر.

ونقول لأمثال هؤلاء المشككين: إن الأمر الذي ورد بالاجتناب أقوى من التحريم.. فلو أن اللَّه جل جلاله قال: حُرِّمتْ عليكم الخمر.. لَكَان المحرم فقط هو شرب الخمر، وكنا في هذه الحالة نصنعها ونتاجر فيها، ونعد الأماكن التي يتم فيها تناولها.. ونخدم شاربيها ونجلس معهم، فما دُمْنا لا نشرب الخمر.

وما دام قد نزل فيها أمر تحريم فقط فلنا أن نفعل كل هذا.. ولكن الاجتناب حرم أن نقترب أساساً من الأماكن التي يتناولون فيها الخمر أو نصنعها أو نتاجر فيها أو نجالس الذين يشربونها، فالاجتناب أقوى من التحريم، ولذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى طلب من آدم وزوجته ألَّا يقتربا من الشجرة المحرمة، وإلَّا يكونا قد ظلما نفسيهما.

بداية المعصية:

ماذا فعل الشيطان؟ إنه يريد أنْ يُوقعَ آدم وحواء في المعصية.. فماذا فعل؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.. [الأعراف: ٢٠].

قول الحق سبحانه وتعالى: «وسوس» يدل على أن الحديث دار هَمْساً بصوت خافت، والوسوسة هي إغواء الشيطان، وهي إغراء بارتكاب الشر، والذي يتحدَّث ويأمر بالخير لا يهمه أنْ يكونَ حديثه بصوت عَالٍ.. ولكن الحديث في الشر والغواية لا يتم إلا هَمْساً بصوت خافت.

والوسوسة باللغة العربية هي صوت رنين الذهب والحلي، وهو صوت يجذب الناسَ ويغريهم ويلفت نظرهم، والوسوسة لا بدَّ أن يكون فيها إغراء لأنك إذا أردتَ أن تُخرج الناس عن منهج اللَّه لا بُدَّ أنْ تُغريهم بمتعة دنيوية سيفوزون بها.

إننا لا بدَّ أن نتوقف عند قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.. [الأعراف: ٢٠]، لأن الشائع أن الشيطان أغوى حواء، وأن حواء هي التي أغوتْ آدم، وزيَّنتْ له المعصية حتى أكل من الشجرة، وأنه لولا حواء لبقي آدم في الجنة.

نقول: إن اللَّه سبحانه برَّأ حواء من هذه الفِرْية، فقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.. [الأعراف: ٢٠]، دليلٌ على أن الشيطان هو الذي زيّن المعصية لآدم كما زيَّنها لحواء. أي: أن الشيطان هو الذي قام بإغواء آدم وحواء، ولم تَقُمْ حواء بإغواء آدم على المعصية، والغواية جاءتْ من الشيطان للاثنين معاً.

ولكن ما الهدف من هذه الوسوسة؟ هدفه أنْ يعصي آدمُ وحواء ربهما، فيعاقبا كما عُوقبَ الشيطان بالطرد من رحمة اللَّه، والعقوبة هنا هي أن تظهر سوءات آدم وحواء، والسوأة هي ما يسوؤك النظر إليه، أو هي العورة، لأن الفطرةَ تجعل الإنسان يخجل من أنْ يُظهرَ عورته على الناس.

وقبل أن يأكل آدم وحواء من الشجرة لم يَرَ أحدُهما عورةَ الآخر، ولا عورة نفسه، فلا آدم رأى عورته ولا عورة حواء، وكذلك حواء لم ترَ عورتها ولا عورة آدم.. كلاهما ستره اللَّه عن الآخر.

لقد أتعب العلماءُ أنفسهم في كيف كانت عورتا آدم وحواء مستورتين عنهما؟ قال بعضهم: كان عليهما اللباس. وقال آخرون: إن أظافر آدم وحواء كانت طويلة، حتى كانت تصل إلى قدميهما، وكانت هي التي تستر العورة، ثم زالتْ هذه الأظافر بالمعصية.

ولكن ذلك لا يجب أنْ يشغلنا، فاللَّه سبحانه وتعالى كان يستر عورتَيْ آدم وحواء بما شاء من أنواع الستر بنور قوي من عنده.. فالنور إذا كان قوياً فلا تستطيع أنْ ترى الأشياء من خلاله، فإن النور في ضعفه نميز به الأشياء.. وفي قوته يخفيها عنا.

وسواء ستر اللَّه سبحانه وتعالى عورتَيْ آدم وحواء بثوب أو بأظافر أو بنور من عنده، فالمهم أن هذه العورات كانت مستورة من أعينهما.

وظهرت عورة الإنسان:

والسؤال: لماذا نستاء عندما تظهر عوراتنا؟ إن العورات هي مكان خروج فضلات الطعام والشراب.. إننا نحرص على كشف أماكن دخول الطعام والشراب كالفم مثلاً.. ونحرص حرصاً شديداً في نفس الوقت على عدم إظهار أماكن خروج فضلات الطعام والشراب.

يقول بعض العلماء في تعليل ذلك: إن العورة تُذكِّرنا بمعصية اللَّه، فعندما حدثتْ المعصية ظهرتْ العورة، ولذلك فنحن نريد أن نسترها، لأنها رمزٌ للمعصية، والمعصية عورة يحاول الإنسان دائماً أن يُخفيها ويخجل منها ويحرص ألَّا يراها الناس، والرجل مع زوجته يحرص على أن لا يراه أحد، ويحتاط لذلك أشد الاحتياط.

الإنسان عندما يكون معه مال حلال يُخرجه أمام كل الناس، ولا يخشى شيئاً.. والإنسان ومعه مال مسروق يحاول أنْ يُخفيه عن الدنيا كلها، فالمعصية في كل أحوالها عورةٌ يحرص الناسُ على إخفائها وسترها.

ولكن كيف تمَّ إغواء الشيطان لآدم وحواء؟ كيف أوقعهما في المعصية؟ اقرأ قول الحق جلَّ جلاله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

جاء الشيطان لهما من جهة ما تريده النفس البشرية وتتمناه، وهو حياة خالدة لا تنتهي ولا تزول، ومُلْكٌ دائمٌ لا ينفد، ولذلك فإن الشيطان حين أراد أنْ يُغري آدم وحواء بأنْ يأكلا من الشجرة قال لآدم كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

والشيطان كاذب فيما يقول، فلو كانت هذه شجرة الخلد فعلاً لأكلَ منها الشيطان نفسه وأصبح خالداً لا يموت.. ولكنه طلب من اللَّه أنْ يُبقيه إلى يوم القيامة، لأنه يعلم يقيناً أن اللَّه هو خالق الحياة، وأنه وحده الذي يُبقيها أو يُذهبها.

ولا بدَّ أن ننتبه إلى طريقة إغواء الشيطان.. إنه يحاول إغواء الإنسان بأن منهج اللَّه سبحانه وتعالى يضره ولا ينفعه، وأن النفع الحقيقي هو في المعصية، لهذا قال لآدم وحواء: إن اللَّه منعهما من الأكل من هذه الشجرة حتى لا يكون لهما المُلْك والخلود.

والإنسان يكره الفقر ويكره الموت، ويريد أنْ يبقى خالداً، ولذلك جاء لهما الشيطان ليقول لهما: إذا أردتما الخُلْدَ والمُلْكَ فأمامكما هذه الشجرة، وحلف لهما كما يروي القرآن الكريم:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

أي: أقسم لهما أنه يريد لهما النصح، وصدّقا القَسَم، صدَّقا الشيطان في أنه يريد لهما الخير، ولذلك عاتب اللَّهُ سبحانه وتعالى آدمَ وحواء بأنهما صدَّقا قَسَم إبليس، مع أنه جلَّ جلاله قد بيّن لهما أن إبليس عدو لهما لا يريد لهما الخير.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ولكن آدم وحواء هما اللذان أحسَّا بالندم الشديد.. ما كانا يعتقدان أن خلقاً من خَلْق اللَّه يقسم باللَّه على باطل.. ولذلك قال قتادة رضي اللَّه عنه: المؤمن باللَّه يُخدع. أي: إذا دخلتَ على مؤمن باللَّه سَهُلَ لك خداعه.

وكان سيدنا عبد اللَّه بن عمر عندما يُحسن أحدُ عبيده الصلاةَ يعتقه، فكان العبيد إذا رأوْهُ بدأوا يصلون بخشوع، فقال له الناس: إن العبيد يخدعوك لتعتقهم. فقال لهم عبداللَّه بن عمر: مَنْ خدعنا باللَّه انخدعنا له.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.. [الأعراف: ٢٢].

لفظ «دلى» مأخوذ من دلى حبل الدلو في البئر ليبحث عن الماء، والغرور هو الإغراء الذي يُوقِعَ الإنسان في المخالفة.

وهنا لنا وقفة.. لا يظن أحدٌ أن إبليس أوقع آدم وحواء في المعصية على مرحلة واحدة، بل سبق ذلك مراحل، فإبليس خدعهما أولاً ليقتربا من الشجرة، ثم زيّن لهما ثمارها وحلاوتها ولونها ورائحتها، ثم بعد ذلك أغراهما بالأكل! أي: أن المعصية تمتْ على مراحل ولم تتم دفعة واحدة.

ورسول اللَّه ﷺ يقول: «تُعرَضُ الفتنُ على القلوب عوداً عوداً.. كالحصير»، لذلك لا بدَّ لنا أن ننتبه أن الاقتراب من المعصية يُوقعنا فيها.

ماذا حدث؟ هل كرَّر آدمُ وحواء المعصية، وأكلا مرات ومرات من الشجرة؟ الحق تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾.. [الأعراف: ٢٢]، أي: بمجرد التذوق، ولم يكُنْ هناك إصرارٌ على تكرار المعصية.. إنه بمجرّد التذوق ظهرتْ لهما عوراتهما فقاما بإخفائها أو مداراتها بورق أشجار الجنة.. ومعنى ذلك أنهما احتاجا إلى أكثر من ورقة ليداريا العورة.

وهنا نرى عدل اللَّه سبحانه وتعالى في أنه حذرهما أولاً من المخالفة، وأبلغهما بالجزاء أو العقاب حتى يكون العقاب عدلاً وحقاً، ولذلك فإن التشريع الإلهي لا يوجد فيه ما يُسمَّى بالقوانين بأثر رجعي، فلا تجريمَ في العدل الإلهي إلا بنص، والنصُّ هو نَهْيٌ لآدم وحواء أن يقربا هذه الشجرة، وأن الشيطانَ عدو لهما.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾.. [الأعراف: ٢٢]، بصيغة الاستفهام.. معناه أنه لا يوجد إلا جواب واحد: نعم يا رب نهيتنا.

لقد كان الهدف من هذه التجربة العملية من اللَّه سبحانه وتعالى أن يُحصِّنَ آدم وحواء وذريتهما من الشيطان، فيعرفا أنه كاذبٌ في كل ما يَعِدْ به.. وأنه يريد بهما السوء، ولو تظاهر بأنه يريد لهما الخير، وأن مهمة الشيطان أنْ يستخدمَ كل الحيل لإغراء آدم وذريته على المعصية، وأن يستخدم كل الحيل لإيقاع آدم وذريته فيما نهى اللَّه عنه.

ولكن هل انتهت المعركة؟ إنها لم تَنْته.. ولكنها استمرت وستستمر إلى أن تقوم الساعة.

خطيئة آدم.. ومعصية إبليس:

فإبليس قد دخل إلى غواية آدم من جهة أن اللَّهَ عزيزٌ غني مُسْتغنٍ بذاته عن كل خلقه.. إن اللَّه سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

(يا عبادي.. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقصَ ذلك من مُلْكي شيئاً.. ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نقص ذلك عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخِلَ البحر) [أخرجه مسلم ٦٦٦٤].

إذن: فمن باب عزة اللَّه دخل الشيطان إلى غواية آدم، واستطاع إبليس أنْ يقنعَ آدم أن اللَّه قد منعه من الأكل من الشجرة لأنه لا يريد له الخير.. وذلك حتى نفطنَ إلى طريق إبليس في الغواية، فلا خيرَ في خير يؤدي إلى

النار والمعصية، ولا شرَّ في شر يؤدي إلى الجنة وطاعة اللَّه.

إن الشيطان يحاول أن يُصوِّر الشر للإنسان بأنه خير، ولذلك صوّر لآدم أن المعصيةَ خيرٌ، فلما أكل آدم من الشجرة وارتكب المعصية هرب إبليس!

والسؤال الذي يدور هنا.. لماذا غفر اللَّه سبحانه وتعالى لآدم خطيئته، ولم يغفر لإبليس معصيته؟ لقد عصى آدمُ وعصى إبليس.. الأول: تاب اللَّه عليه وتقبَّل توبته.. والثاني: لعنه اللَّه وجعله خالداً في النار.. ما هو الفرق بين المعصيتين؟

نقول: إن آدم وحواء حين عَصَيا اللَّه سبحانه وتعالى.. لم يُصرَّا على المعصية.. ولم يُحاولا ردَّ الأمر على الآمر.. إنهما لم يقولا: يا رب إن حكمك ليس حقاً، كما فعل الشيطان حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، لم يفعلا ذلك، ولكنهما اعترفا بذنبهما، وطلبا المغفرة والرحمة من اللَّه.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

تلك هي الكلمات التي قالها آدم وحواء بعد المعصية. قالا: يا رب.. إن قولك حقٌّ وحكمك حقٌّ.. ولكننا لم نستطع أن نحمل نفسينا الضعيفتين على اتباع المنهج، فظلمنا أنفسنا. أي: أننا مشينا بها في طريق الهلاك، ونحن نطلب منك المغفرة والرحمة، فإنْ لم تُعطهما لنا نَكُنْ من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة.

وهكذا طلب آدم وحواء من اللَّه أن يتوب عليهما.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

والتوبة تمَّتْ على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: أنه تعالى شرع التوبةَ لعباده.

المرحلة الثانية: أنهم عندما تابوا قبلها منهم.

والمرحلة الثالثة: من التوبة تكون بعدم عودتهم إلى المعصية.

بعض الناس لا يستوعب قَوْلَ الحق تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وبعض الناس يتساءلون: إذا كان اللَّه قد تاب عليهم.. فلماذا وجبت عليهم التوبة؟

نقول: إن تشريع اللَّه سبحانه وتعالى للتوبة لا بُدَّ أن يحدثَ قبل التوبة، فقوله: ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.. أي: شرع لهم التوبة؟ قال لهم: إذا فعلتم ذنباً أو معصية فتوبوا.. وما دام اللَّهُ جلَّ جلاله قد طلب منهم أنْ يتوبوا فإنهم يتوجهون إليه بالتوبة فيقبلها اللَّهُ منهم.

وتشريعُ التوبة ليس رحمةً بالعاصي وحده، ولكن بالمجتمع كله، لأن اللَّه سبحانه وتعالى لو لم يفتح باب التوبة لازداد كلُّ مَنْ يرتكب معصية من معاصيه.. فما دامت لا توجد توبة، وما دامت المعصية تؤدي إلى الخلود في جهنم.. فكل مَنْ ارتكب معصية واحدة يملأ حياته بالمعاصي، فما دام لا أملَ له في الجنة فليأخذ نصيبه من الدنيا.. وبهذا يشقى المجتمع كله، لأن كلَّ عاصٍ سيزداد معصيةً.

وانتشار المعصية لا يعاني منها فردٌ.. بل يعاني منها المجتمع.. ولكن اللَّه تبارك وتعالى ـ بتشريعه التوبةَ ـ قد رحم المجتمعَ من انتشار المعاصي، فالمعصية الأولى لا تؤدي إلى الخلود في النار إذا تاب الإنسان عنها ورجع إلى اللَّه، ولذلك فإن الإنسان لا يتمادى في المعصية، بل يذهب إلى جانب الخير فيتوب إلى اللَّه، ويُكثر من عمل الخير فيغفر له ذنبه، وبذلك يبقى الأملُ في جنة اللَّه، وتبقى الرغبةُ في الخير، فينصلح المجتمع ويملؤه الخير، فالتوبة رحمةٌ للمجتمع.

إبليس تأبّى على أوامر اللَّه.. وزاد ذلك بأنه سيُغوي الإنسان على المعصية، فقال كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

إن إبليسَ لم يعترف بمعصيته، بل أصرّ عليها، وقال: سأفعل كذا وكذا

وكذا في إصرار على المعصية.. أما آدم وحواء فقد اعترفا بذنبيهما، وهذه نقطة هامة لا بدّ أنْ نلتفتَ إليها، لينتبه الناسُ الذين يُقدِمُون على المعصية ألا يبرروها بردِّ الأمر على اللَّه، كأنْ يقولوا: تغيَّرتْ الظروف أو الوقت قد تغيّر.

مثلاً الذين يتعاملون بالفائدة الثابتة مع البنوك، وهذه فيها شبهة ربا، نقول لهم: لا تقولوا إن الربا ليس حراماً، وأن الفائدة الثابتة نظام عالمي.. وأن الدنيا كلها تتعامل بها.. وأن الزمن قد تغيّر.. إلى آخر ما نسمعه في هذه الأيام.. إنكم بقولكم هذا تُخرجون أنفسكم من نطاق رحمة اللَّه إلى نطاق الطرد من رحمته سبحانه وتعالى.

ولكن قولوا: يا رب، لم نقدر على أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا، وفي هذه الحالة تكون قد اتهمتَ نفسك بالضعف والغفلة والظلم.. وأبقيتَ نفسك في نطاق الإيمان، ولكن أنْ تردَّ الحكم على اللَّه.. وتقول: إن الربا ليس حراماً.. تكون قد خرجتَ من الإيمان إلى الكفر والعياذ باللَّه.

فإذا ارتكبَ إنسانٌ معصيةً فلا يحاول أنْ يبررَ ارتكابها أو يدافع عنها.. ويدّعي أنها حلالٌ.. ولا يقول: إن الظروف قد تغيَّرتْ.. وكان الواجب أنْ يتغيَّر الحكم فإن ذلك فيه ردٌّ لأمر اللَّه يخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر.. ومن الرحمة إلى اللعنة.. وهذا هو الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس.

إبليس عصى وتكبَّر.. أما آدم فعصى ولكنه اعترف بذنبه.

وحينما اعترف آدم وحواء بذنبيهما علَّمهما طريق التوبة.. ولولا أن اللَّه جلَّ جلاله علَّمهما لَمَا عرفا كيف يتوبان.. فالتوبة تمت بإيحاء من اللَّه سبحانه وتعالى.

وإذا تدبَّرنا قولَ الحقِّ جلَّ وعلا.. نرى أن الحق تبارك وتعالى قال:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.. [الأعراف: ٢٣]، نلاحظ هنا أنهما تحدَّثا بصيغة الجمع.. إنهما لم يقولا: ربنا ظلمنا نفسينا، لأن الخطابَ لا يشمل آدم وحواء بل يشمل ذرية آدم المطمورة في ظهره.. حينئذ قال الحق جل جلاله لهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤].

يجب أن ننتبه إلى الآيات التي تروي لنا عملية الهبوط، فمرة يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.. [طه: ١٢٣].

ومرَّة يقول جل جلاله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.. [البقرة: ٣٨].

المُخَاطبون هم آدم وحواء وإبليس، والعداوة هنا مُسبقة بين الإنسان والشيطان، ولكن قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.. [طه: ١٢٣]، تُبيِّن لنا أن العداوة بين طرفين: آدم وحواء طرف، وإبليس طرف آخر، فكأنهما فريقا آدم وحواء وذريتهما، وإبليس وذريته.. فلا تعارض.

ويجب علينا أن نفهم أن استخدامَ الحق لعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾أنه سيكون هناك صراعٌ وعداءٌ بين ذرية آدم وذرية إبليس، وأن هذا الصراع مستمر بعمر الدنيا فقط، ولا يمتد إلى الآخرة، ولكنه بالنسبة للشيطان والإنسان.. صراع مستمر بعمر كل منهما في الدنيا.. وليس بعمر الدنيا كلها، فإذا مات الشيطان أو مات الإنسان انتهى الصراع بالنسبة لهما، وعمر الجن أكبر كثيراً من عمر الإنسان.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى في حق الجن: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

فكأن هؤلاء الجن عاشوا عصر موسى عليه السلام، وظلوا أحياء حتى نزل القرآن الكريم. أي: ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة، ولا يوجد من البشر مَنْ عاصر موسى، وعاصر رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

صراع في الدنيا:

إن الصراع بين الشيطان والانسان فترته محدودة بحياة الاثنين، ولا يمتد بعد الموت، ولا يكون في الآخرة.

الحق سبحانه وتعالى يتوجه بعد ذلك بالنصح إلى أولاد آدم ليُحصِّنهم من الشيطان، فيقول جلَّ جلاله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والخطاب هنا مُوجَّهٌ إلى كل نفس من أولاد آدم، لأن كلَّ نفس من أولاد آدم، لها معركة وعداوة مع ذرية إبليس.

اللَّه سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أنه أنزل لنا من السماء منهجاً يستر عوراتنا ويُداريها، والإنزال يقتضي أن يهبطَ الشيء من علو، وكل خير في الأرض هبط من السماء، واللباس يُصنع مما تنتجه الأرض، وما تنتجه الأرض لا يكون إلا بالمطر الذي ينزل من السماء.

ويجب أن نعلم أن اللَّه تبارك وتعالى أنزل المنهج ليستر عورات البشر، وعورات المجتمعات، إننا إذا أقمنا المنهج، فلن تظهر فيها عورات ولا سيئات.. ولأصبحَ المجتمعُ متجانساً مترابطاً.. فكان الذي أنزله اللَّه من السماء من مطر يعطينا من الأرض الثوب الذي يُداري عوراتنا الحسية، ولباس من القيم يُداري عوراتنا المعنوية.. بل وأكثر من ذلك أعطانا الزينة من ريش الطير وغيره كنوع من الرفاهية والمتعة.

فكأن الحق سبحانه وتعالى أعطانا ترف الحياة، وجعله حلالاً لنا، وأعطانا المنهج ليستر عوراتنا المعنوية، فإذا كان اللباس المادي يُداري عورة الجسد في الحياة الدنيا، فإن لباسَ التقوى يُداري عوراتنا من فضوح الآخرة، ولباس التقوى. أي: الذي نتقي به غضبَ اللَّه سبحانه وتعالى هو خيرٌ من اللباس المادي.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى عنه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إذن: فلباس التقوى ـ الذي هو خير من لباس الدنيا لأنه يقينا غضب اللَّه جلَّ جلاله ـ هو آيةٌ من آيات اللَّه، لنعرف أننا مُكوَّنون من مادة وقيم، وكما للمادة عوراتٌ مادية تظهر إذا نزعنا ثيابنا فللقيم أيضاً عورات تظهر لعدم التقوى.

ثم يأتينا التحذير من اللَّه سبحانه وتعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ﴾.. [الأعراف: ٢٧].

اللَّه سبحانه وتعالى يُحذِّرنا من فتنة الشيطان، والفتنة هي الاختبار. . فإذا نجحنا في الاختبار فلن يحدث الفساد، ولكنه يحدث إذا سقطنا في الفتنة، والفتنة ليست شراً ولا خيراً، بل هي اختبار يأتي بالخير إنْ نجحت، أو بالشر إنْ سقطتَ فيه.

وهكذا جاء التحذير من الشيطان بتجربة عملية لآدم وحواء قبل أن ينزلا إلى الأرض، وهي تجربة التكليف في: افعل ولا تفعل، وكانت التجربة في التكليف، فيها أمر وفيها نهي، الأمر أن آدم له أن يأكل من كل ما في الجنة التي كان يعيش فيها، والنَّهْي أنه لا يقرب شجرة واحدة، في هذه الجنة.

لقد أفهم اللَّه تبارك وتعالى آدمَ أن الشيطانَ عدوٌّ له، وأنه سيقعه في المعصية، ولكن رغم هذا التحذير أكل آدمُ وحواءُ من الشجرة فظهرتْ عوراتُهما، وذلك حتى نعرفَ أن أيَّ طاعة للشيطان لا يأتي منها الخيرُ أبداً.

اللَّه سبحانه وتعالى يريد منا أن نعلمَ أن آدم فيه عنصران: عنصر البشرية التي تصيب وتخطئ، وتعصي وتتوب. وعنصر النبوة المعصومة من الخطأ.

ولذلك يجب أن نفطن الى النصِّ القرآني في قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وهذه طبيعة البشر. وقوله جلَّ جلاله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

وهذا الهدى الذي سيأتي به الأنبياء من ذرية آدم، ولذلك لا يجب أن نقول: كيف عصى آدمُ ربه وهو نبيٌّ؟ فمعصية آدم حدثت قبل النبوة، وبعد المعصية جاءت النبوة وجاء الهدى.

إذن: فالبشرية تنقسم الى قسمين: أنبياء يُبلِّغون الناس المنهج عن اللَّه، وهؤلاء معصومون من الخطأ. وقسم يُبلِّغهم اللَّه منهجه، فيطيعون ويعصون ويتوبون. ولا يقول أحد أو يدَّعي أن آدم نزل إلى الأرض بسبب المعصية، لأن اللَّه خلقه وذريته للحياة في الأرض، ونهاهم وحذَّرهم من فتنة الشيطان في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾. . [الأعراف: ٢٧].

هذا التحذير للبشر وليس للشيطان، فاللَّه جلَّ جلاله لم يقل للشيطان: لا تفتن بني آدم. ولو قال له ذلك لَخرجَ الشيطانُ عن مهمته في الحياة،

ولأصبحتْ الحياةُ ليستْ دارَ اختبار كما أرادها اللَّه سبحانه وتعالى، تُؤدي بخَلْقه المختارين.. إما الى الجنة، وإما الى النار والعياذ باللَّه.

ولذلك فإن فتنة الشيطان هي من تمام ما أراده اللَّهُ للحياة الدنيا.. لكن بعض الناس يتساءلون عن قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

والنهي هنا للبشر.. والسؤال: هل يملك الناسُ اختياراً في الموت؟ هل يستطيعون أنْ يُحدِّدوا وقته وزمانه ومكانه.. فلا يموتن إلا وهم مسلمون؟

نقول: إن الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يلفتنا إلى أن الموتَ يأتي بغتة، وفي أيِّ لحظة.. فكونوا على الإسلام دائماً، حتى لا يُفاجئكم الموتُ إلا وأنتم مسلمون.

إن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرفَ أن فتنة الشيطان تُخرجنا من جنة التكليف التي تقودنا إلى جنة الخلود في الآخرة، ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾.. [الأعراف: ٢٧].

أي: أن الشيطان يرانا ونحن لا نراه، وهذا يعطيه قدرة على الإغواء، لأننا ما دمنا لا نراه فإننا لا نستطيع أن نعرف الجهة التي سيأتي منها، أو أن ننتبه الى أنه يُوسوس لنا.

ولكن هل تركنا الحق تبارك وتعالى للشيطان يُغرينا ويُغوينا؟ أم أنه أوجد لنا الوقاية؟

الحق جلَّ جلاله شاء عدلُهُ أن يُوجد لنا الوقايةَ من هذه الوسوسة ومن كل هذا الشر.. الوقاية لا تكون إلا بالتمسك بمنهج اللَّه، والذي يتمسك بمنهج اللَّه ويخلص له لا يستطيع الشيطانُ أن يصلَ إليه أبداً، ولا أنْ يُغويه.

ولذلك نجد في الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢، ٨٣]، اعترافاً من الشيطان بأنه لا يستطيع أنْ يقتربَ ممَّن يتمسك باللَّه وبمنهجه، لأنه في مَنَعة منه لتمسكه بمنهج اللَّه.

وهنا يأتي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

لقد كَفَل الحق تعالى الحمايةَ لكل عبد أخلص في إيمانه باللَّه، وأخلص في عبادته، ولذلك فإن المؤمنين يحفظهم اللَّه جل جلاله من غواية الشيطان.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه في وصف المؤمنين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

معنى هذا أن الشيطان إذا مسَّ عباد اللَّه المؤمنين فإن اللَّه لا يتركهم، وإنما يُذكِّرهم بمنهجه، وحينئذ يبصرون الحق، فيعودون إلى اتباع المنهج، فكأن الذي يتبع الشيطان مثل الأعمى الذي لا يرى شيئاً فيتخبط في السير ويتعثر ويقع، والشيطان يحاول أنْ يُعمي الأبصار، حتى لا ترى الحقيقة، ولا ترى آيات اللَّه في كونه ولا تبصر شيئاً.

إن الحق تبارك وتعالى يعطينا هذه الصورة وهو يصف لنا اتباع الشيطان في الآخرة في قوله سبحانه:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦].

أي: أن مهمة الشيطان.. أن يُعمي الإنسان عن آيات اللَّه في الكون، فلا يرى عظمة الخلق، ولا يرى قدرة اللَّه الخالق سبحانه وتعالى.. وعدم رؤيته لهذه الآيات يُنسيه عبوديته للَّه، ويجعله يأخذ الدنيا على أنها غايةٌ وليست وسيلةً للآخرة.

ولذلك فهو يحاول أن يأخذ منها كلَّ ما يستطيع حلالاً أو حراماً، لأنه ما دامت لا توجد بالنسبة له إلا الدنيا، فمهمته أن ينتزع منها كل ما تعطي بطريق مشروع أو غير مشروع، والمهم عنده ومقياسه في النجاح هو ما يُحققه من شهوات ونزوات وسرقات ورشوة إلى غير ذلك.

هذا الصنف من الناس عندما يأتي في الآخرة يبعثه اللَّه أعمى لا يرى شيئاً.. يتخبط ويتعثر.. فإذا سئل عن سبب هذا العمى وقد كان مبصراً في الدنيا، فيقول: لقد كنتُ أعمى في الدنيا. فيقول له اللَّه: لقد كنتَ أعمى في الدنيا.. حقيقة كانت لك عينان ولكنك لم تكُنْ تبصر بهما آيات اللَّه في كونه،

لهذا انطلقت تعصي وتكفر، فكما نسيتَ آيات اللَّه في الدنيا ينساك اللَّه سبحانه وتعالى في الآخرة. أي: لا تنالك رحمته في هذا اليوم.

ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

والعمى هنا ليس معناه فقد البصر، ولكن معناه فقد البصيرة التي يرى بها الإنسان آيات اللَّه التي تدفعه إلى الإيمان، وإلى طاعة المنهج.

ومن رحمة اللَّه أنه سبحانه وتعالى فضح لنا أساليبَ الشيطان.. وكيف يُغوي الإنسان، وأبان لنا الطريقة التي يدخل بها إلى النفس البشرية؟ والوسيلة التي يوقع بها الإنسان في المعصية؟ لقد وضح لنا هذا كله حتى نتنبه إلى مداخل الشيطان للنفس البشرية، لكي نسدَّ هذه المداخل، فلا ينفذ الشيطان إلى نفوسنا.

فما هي هذه المداخل؟

مداخل الشيطان إلى الإنسان:

اللَّه سبحانه وتعالى أخبرنا في القرآن الكريم أن هناك للشيطان: نزغاً.. وهمزاً.. ووسوسةً.. ومساً. فما هو الفرق بين هذه الأشياء كلها؟ وما هي الطريقة التي يدخل بها الشيطان إلى النفس البشرية؟ وكيف يدفعها إلى المعصية؟ وكيف يُخوِّف أولياءه؟ ويسيطر عليهم بالخوف؟ وكيف يهرب ويترك الإنسان الساقط في المعصية، ثم يتبرأ بعد ذلك؟

قبل أن نبدأ.. لا بدَّ أن نقول: إن للشيطان وسوسة، وللنفس البشرية وسوسة ودَفْعاً إلى المعصية.. ذلك أن اللَّه سبحانه وتعالى أخبرنا في القرآن الكريم أن النفوس تتفاوت: هناك النفس الطيبة.. والنفس اللوامة.. والنفس الأمارة بالسوء.

فالنفس الطيبة هي التي لا تعمل إلا طيباً وإلا خيراً.

والنفس اللوامة هي التي يقع صاحبها في المعصية، ولكنها تلومه عليها فيعود إلى الخير مرة أخرى، وقد يقع الإنسان في المعصية أكثر من مرة.

والنفس الأمارة بالسوء هي التي اعتاد صاحبها السوء، فلم يَعُدْ يثير فيه

أيَّ شعور بالندم والاستنكار، بل هو يعيش مع السوء ويأمر بالسوء وقد اعتاده، بحيث أصبح لا يفعل إلا سيئاً.. ويستمتع بذلك السوء!

هناك نوعان من الوسوسة: وسوسة الشيطان بالنسبة للإنسان.. ووسوسة النفس له، فكيف نُفرِّق بين وسوسة الشيطان، ووسوسة النفس؟

نقول: إن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أيِّ وجه.. فلا يهمه نوعُ المعصية ولكن يُهمه حدوثها.. فإذا حاول أن يُغريَ الإنسان بالمال الحرام، ولم يجد منه استجابة أسرع يُزيِّن له المعصية مع النساء بارتكاب الزنا والفاحشة.

فإذا فشل في ذلك أسرع يزين له معصية الخمر، ويحاول أن يُغريه بها، فإنْ سدّ عليه كلَّ منافذ المعصية أسرع يحاول أن يفسد له الطاعة بأنْ يجعله مثلاً يتفاخر بالصدقة فيضيع ثوابها، أو إذا جاء موعد الصلاة فإنه يحاول أنْ يمنعه من أدائها.

ويجب أن تعلم أن هذا الإغواء لا يأتي قسراً أو قهراً.. فالشيطان ليس له سلطان القهر على الإنسان.. ولكن إذا أذّن للصلاة ـ مثلاً ـ فإنه يغريه ألا يقوم إلى الصلاة، وإنما يؤجلها حتى ينتهي الفيلم الذي يشاهده في التليفزيون، فإذا انتهى الفيلم يذكره بأعمال يؤديها، كأن يتصل بصديق له بالتليفون، أو يتناول العشاء أولاً، أو يقوم بزيارة كان قد نسيها، إلى غير ذلك من أفاعيل الشيطان.

فإنْ كان الإنسان تاجراً.. فإنه يُخوِّفه من أنه إذا قام للصلاة فستضيع منه صفقات ويضيع منه ربح.. وهكذا يظل ينقله من مشكلة إلى أخرى حتى يضيع وقت الصلاة، أو ينصرف عنها بالتدريج، فإن فشل في ذلك، فإنه يُوسوس له في وضوئه وصلاته، فيقول له: إنك لم تحسن الوضوء فأعدْهُ.. ويظل يُشكِّكه في وضوئه.. ثم يُعيده مرات ومرات.. ثم بعد ذلك يُشكِّكه في صلاته.. حتى يعيدها مرات ومرات، ويدخل الشك في نفس الإنسان.. فلا يعرف كم صلى.. ولا يعرف هل أحسن الوضوء أم لا؟

إذن: فالشيطان لا يهمه نوع المعصية، ولكن يهمه أن تتم المعصية.

أما وسوسة النفس فهي أن تُصرَّ على نوع معين من المعصية.. لا تريد غيره.. أي: أنها تُلحّ على صاحبها أن يرتكب معصية بذاتها ويكررها، ولا تطالبه بمعصية أخرى.

الفرق بين الوسوستين:

ولكي تعرف الفرق بين الوسوستين نقول لك: إذا كان مَنْ يُوسوس لك لا يهمه إلا أن تقع في المعصية بصرف النظر عن نوعها.. فهذا هو الشيطان.. أما إذا كان هناك إصرارٌ على معصية معينة ألفْتَها.. فذلك من نفسك.

إذن: إبليس دائماً يأتي من الباب الذي يرى فيه المنهج ضعيفاً.. فإذا وجد إنساناً متشدداً في ناحية معينة، يأتي إليه من ناحية أخرى يكون فيها ضعيفاً.. فإذا كان الإنسان مثلاً متشدداً في الصلاة محافظاً عليها، ويؤديها في أوقاتها.. جاءه إبليس من ناحية المال، فيوسوس له حتى لا يُخرج الزكاة ويُقتِّر، ويأكل أموال الناس بالباطل، مُدخلاً في نفسه الوهمَ بأن هذه الطريقة تُزيد ماله وتجعله غنياً وتُبعد عنه الفقر.. والحقيقة غير ذلك.

كما قال رسول اللَّه ﷺ: «ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة» [أخرجه مسلم ٦٦٨٤]. لأن الصدقة هي التي تُكثر المال وتضع بركة اللَّه فيه ليزداد وينمو، والمال هو مال اللَّه.. يتركه كلٌّ منا عندما يرحل عن الدنيا، ولكن غير المؤمن يغفل عن هذه الحقيقة.

وحينما يجد إبليسُ إنساناً متشدداً في الصلاة.. مُحباً للمال.. يأتيه من ناحية ضعفه فيمنعه من الصدقة وأنواع البر، ثم يُغريه بالمال الحرام، وتبدأ المعاصي تنسج على قلبه عوداً عوداً، لتغطي القلب كله وتمنعه من ذكر اللَّه.

ولعلنا نذكر قصة ثعلبة الذي طلب من رسول اللَّه ﷺ أن يدعو له اللَّه أن يغنيه.. فقال له رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام: «قليلٌ تؤدي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه».. ولكن ثعلبة أصرَّ.. فدعا له رسول اللَّه ﷺ فكثرت غنمه حتى ضاقتْ بها المدينة، فخرج إلى خارجها، وبدأ ثعلبة يغيب عن الصلاة مع رسول اللَّه ﷺ، فيحضر مرة ويتخلف مرة، حتى اقتصر على صلاة الجمعة،

ثم امتنع عن صلاة الجمعة، ثم امتنع بعد ذلك عن دفع الزكاة، مُدعياً أنها جزية، حتى نزل فيه قول اللَّه تعالى:

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧].

وعندما نزلت هذه الآية الكريمة انزعج ثعلبة وأسرع يحمل مال الزكاة إلى رسول اللَّه ﷺ فلم يقبله منه.. وفي عهد أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه أسرع يحمل الزكاة إلى أبي بكر، ولكن أبا بكر رفض أن يقبلها منه قائلاً: ما كنتُ أقبل ما رفضه رسول اللَّه ﷺ.. وعندما جاء عهد عمر بن الخطاب عرض ثعلبةُ الزكاةَ على عمر فرفض أن يقبلها منه.. ومات ثعلبة في عهد عمر بن الخطاب.

هذه قصة تُرينا كيف استغلَّ الشيطانُ حبَّ المال في قلب عبد من عباد اللَّه ليُخرجه عن الطاعة وعن المنهج، وليقوده إلى المعصية، وإلى الكفر والعياذ باللَّه، والأمثلة على ذلك كثيرة.. إنه يبحث عن نقاط ضعف في الإنسان لكي ينفذ إليه منها، ولا يفتر عن ذلك أبداً حتى يُوقعه في حبائله ويُخرجه عن منهج اللَّه.

البحث عن الضعف:

وهكذا تتعدَّد صور الإغواء، فإذا وجد إبليسُ العبدَ المؤمنَ مُتشدداً في الصلاة والزكاة.. وضعيفاً من ناحية المرأة مثلاً.. أتاه من ناحية هذا الضعف، فيظل يُزين له امرأة خليعة، ويُوسوس له حتى يسقطَ في الزنا، ويكون بذلك قد سقط في الكبائر.

فإذا كان العبد المؤمن قوياً في كل هذه النواحي جاءه إبليسُ وزيَّنَ له الخمر أو الميسر أو مجلس السوء أو النميمة.. المهم أن إبليس يترك الإنسان في نقاط قوته ويأتيه من نقطة ضعفه.

إياكم أن تظنوا أن الشيطان حين يُغوي الإنسان يأتي له عن طريق شر ينفر منه، بل إن إبليس يُلبس هذا الشر لباساً خادعاً، يجعله مُحبباً إلى النفس سهلاً عليه مرغوباً فيه.

فإذا كان إنسانٌ يعاني ضعفاً مالياً.. يأتي له ليُحببه في السرقة ويُزينها له، فهو أولاً يُوسوس لمنْ يريد أن يدفعه إلى السرقة.. بأنها عملية بسيطة.. ستتم بسهولة ولن تنكشف.. كأنْ يقولَ له: ادفع هذا الرجل الذي يملك مالاً إلى الأرض.. ثم تظاهرْ بأنك تساعده على النهوض والوقوف مرة أخرى.. وفي هذه الأثناء التي لا يكون فيها منتبهاً.. اسرق حافظة نقوده!

إنه هنا يبسط له الأمر، ويُلبس الشر بلباس خادع، يأتي مثلاً يُغري إنساناً بسرقة حقيبة.. فيُبين له مكانَ شيخ كبير يحمل حقيبة ثقيلة.. ويقول له: اعرض عليه أنْ تحملَ عنه لتعينه، لأنه شيخٌ ضعيف.. وعندما تأتي لتحمل الحقيبة يُوسوس لك: غافل صاحبها واهرب بها!

يأتي إلى إنسان.. ليغريه على أنْ يمدَّ يده لمال حرام، ويكون هذا الإنسان مثلاً يعمل صرافاً، فيُوسوس له أنه محتاجٌ للمال الذي في خزينته، وأنه سيأخذه كسلفة فقط، ويعيده عندما يتيسر حاله في القريب العاجل، ويمد الصرافُ يده إلى المال الحرام، ولكنه لا يستطيع أنْ يردَّه.

إن الشيطان ليس أبله.. بحيث يأتي لك بصورة الشر، على أنه شرٌّ.. ويذكرك لما ستتعرض له من العذاب في الدنيا والآخرة.. بل إنه يتسلل لك على أساس أنه خيرٌ لك.. والشيطانُ يجري في الإنسان مجرى الدم.

إن من رحمة اللَّه سبحانه وتعالى أنه كشف لنا أسلوبه، حتى نستطيع أن نقيَ أنفسنا منه، والشيطان لا يتركك أبداً ما دُمْتَ على طاعة، بل يحاول أن ينفذَ إليك من ناحية بعد أخرى حتى يوقع بك.. إلا إذا استعذتَ باللَّه دائماً واستعنتَ به.. فإنه لا يستطيع أنْ ينفذ إليك، ولا يكون له عليك سلطانٌ.

الوسوسة في الصلاة:

لقد حذَّرنا اللَّه سبحانه وتعالى من طريق يستخدمه الشيطانُ دائماً في الإيقاع بخلق اللَّه في المعصية.. فقال تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

وهكذا فإن كلَّ مَنْ أخذ طريق: الخمر، أو القمار، أو التقرُّب للأصنام

أو محاولة ضرب الأحجار، أو قراءة الورق. أو: أي نوع من أنواع الدجل لمعرفة الغيب فإنه يرتكب عملاً من الأعمال التي يُزينها الشيطان للإنسان، ليصرفه عن عبادة اللَّه ويُوقعه في الحرام.

اللَّه سبحانه وتعالى حذَّرنا من ذلك، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾.. [المائدة: ٩٢].

هذا التحذير ليُعلمنا اللَّه أن الشيطانَ لن يدعنا ندخل في مجال طاعة اللَّه وطاعة الرسول، وسيحاول جاهداً أن يمنعنا من ذلك، فإذا أوصدنا كلَّ السبل يأتي لحظة الوضوء فيجعلنا ننسى هل غسلنا أيدينا أم لا؟ وهل توضأنا كما ينبغي أم لا؟ ثم يأتي وقت الصلاة.. فيُنسينا عدد الركعات.. أو عدد السجدات.

وهذا ليس علامة سيئة، ولكنها علامةٌ لصالحنا، فالشيطان لا يقترب من الشيء الخرب أبداً.. فلو كانت صلاتُنا غيرَ مقبولة ما اقترب منها.. ولكن اقترابه منها معناه أنها مقبولة وأنه يريد أنْ يُفسدها، ولذلك ما كاد الإنسان يبدأ الصلاة حتى يُذكِّره بأشياء نسيها.. ويُوسوس له محاولاً أنْ يُفسدَ صلاته.

ومن وسوسة الشيطان أيضاً.. أنه يُغرينا بمعصية رسول اللَّه ﷺ ويقول لنا: هذا الأمر لم يردْ في القرآن فلا تطيعوه.. مع أن اللَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.. [النور: ٥٤].

وفوَّضَ اللَّه تبارك وتعالى رسوله ﷺ في التشريع، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾.. [الحشر: ٧].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «يُوشك الرجل متكئاً على أريكته يُحدَّث بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب اللَّه عز وجل، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألَا وإنَّ ما حرَّم رسول اللَّه مثل ما حرم اللَّه». [أخرجه البيهقي في مسنده ٩ / ٥٥٧، والحاكم في المستدرك ١ / ١٠٩].

ووسائل الشيطان في الإغواء متنوعة: فمنها النزغ، ومنها الهمز، ومنها الوسوسة، ومنها المس. فكلمة نزغ معناها نخس، وهي تختلف عن اللمس، لأن بين الناخس والمنخوس مسافة. أما اللمس فهو مباشر بلا مسافة ولكن لا

تُدرك ولا تُحس بحرارة من مس.. أما المس فإنه إدراكُ حرارة الملموس.

إذن: فهناك ثلاث مراحل: النزغ.. والمَسّ.. واللمس.

والنزغ من الشيطان هو أن يُدخلَ خاطراً مُهيِّجاً إلى نفسك، فيثير فيها الغضب، ويجعلك تتصرَّف تصرفاً أحمق، لا يتفق مع العقل ولا مع الدين.

لهذا عندما خاطب رسول اللَّه ﷺ ربه قال: كيف يا ربّ أتقي الغضب؟ قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ونحن لا نبحث هذه المسألة بالنسبة لرسول اللَّه ﷺ، وإذا كان بعض الناس يتساءلون: هل الشيطان يستطيع أن ينزغَ رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام؟!

نقول لهم: إن الآية لم تقل (إذا).. إنما قالت (إما)، وإما معناها أنه يجوز أن يحدث ذلك، ويجوز ألَّا يحدث. إذن: فالمسألة فرْضٌ فيه شك وعدم تأكيد لشيء لن يحدثَ لرسول اللَّه ﷺ.

ولكن لنفرض أنه حدث.. فلماذا يُحرم رسول اللَّه ﷺ من لذة مواجهة الشيطان ليصفعه ويهزمه؟ رسول اللَّه ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينٌ من الجن، قالوا: وإيّاك يا رسول اللَّه؟! فقال: وإياي.. إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير». [أخرجه مسلم ٧٢١٠]

والشيطان ظهر لرسول اللَّه ﷺ وهو ذاهبٌ إلى المسجد.. ويقول الرسول ﷺ: «إن عفريتاً من الجن تفلَّتَ عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني اللَّهُ منه فذعته (خنقته) فأردتُ أنْ أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قوْلَ أخي سليمان: ربِّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي فردَّه اللَّه خاسئاً». [أخرجه البخاري ٤٦١، ومسلم ١١٤٦]

إذن: فالمواجهة حدثت وكانت هزيمةُ الشيطان سريعةً. واللَّه سبحانه طلب من رسول اللَّه ﷺ أنْ يستعيذَ به والاستعاذة هي طلب المعونة، وأنت لا تطلب المعونة إلا ممَّنْ هو أقوى منك وأقوى ممَّنْ يحاول الاعتداء عليك.

تفوق عنصر الشيطان:

الشيطان له خصوصيات كثيرة يتفوق فيها على الإنسان.. منها: خفَّة الحركة.. وعدم قدرتنا على رؤيته.. وقدرته على التغلغل في نفوسنا. إذن: فالمطلوب منا أن نستعينَ بمَنْ هو قويٌّ قادرٌ، ولا يوجد أقوى على الشيطان من خالقه.. واللَّه سميع عليم يسمع استعاذتنا، ويعلم ممَّا نستعيذ.

ويجب أن نلاحظَ أن اللَّه عزَّ وجل قد فرَّق في الحديث بين رسول اللَّه ﷺ وبين أمته، فعندما خاطب رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام قال:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ولكن عندما خاطب أمة رسول اللَّه ﷺ قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

إذن: فعندما تكلم الحقُّ عن المؤمنين.. انتقل إلى المس، ولكن من رحمته أنه لم ينتقل إلى مرحلة اللمس (الالتحام)، فالشيطان لا يلتحم بإنسان مؤمن، وإنما يكون على مسافة قريبة منه.. ماذا يحدث في هذه الحالة؟ يتذكَّر المؤمنون قدرة اللَّه عز وجل على الشيطان، ويتذكرون أن منهجَ اللَّه يحميهم من الشيطان، وعينُ اللَّه لا تغفل عن عباده أبداً.

لذلك يقول الحق سبحانه في حديث قدسي ما معناه: «يا عبادي.. إنْ كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم، وإذا كنتم تعتقدون أني أراكم فلمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم».

فالشيطان أكثر حركةً وإغواءً بالنسبة للمؤمنين، لأن العاصي عاون الشيطانَ بشهوات نفسه، وأصبح يعبد شهواته، فلم يَعُدْ الشيطان محتاجاً إلى جهد كبير، ليقوده إلى المعصية. أما المؤمن الطائع فإنه محتاج إلى جهد كبير ليقع في المعصية.

قلنا: إن الشيطان له نزغ، وهَمْز، ووسوسة، ومس. وتحدثنا عن النزغ وهو كما قلنا أنْ يأتيك الشيطانُ بخاطر يثير فيك الغضب فتفقد عقلك وترتكب ما يغضب اللَّه في نزوة الغضب.

أما الهَمْز فهو ما يلقيه إليك الشيطانُ بصوت خافت محاولاً أن يدبر لك

ما تفعله لتنفذ معصية، أما الوسوسة فهي المحاولة الدائمة للشيطان.. يأتي لك من الجانب الضعيف.. محاولاً أنْ يُحبب إلى نفسك الخروج عن طاعة اللَّه، وهذا هو العمل الدائم للشيطان.. هذه مهمته.

ولكن ما هو المَسّ؟ اللَّه تبارك وتعالى يقول عن الذين يأكلون الربا:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.. [البقرة: ٢٧٥].

فكأن الشيطانَ قد مسّ التكوين الإنساني مما أفسد استقامة مَلَكاته.. التكوين الإنساني له استقامة من الملكات، بحيث تتسق كلُّ حركة مع غيرها، فإذا ما مسَّ الشيطانُ أحداً من البشر فإن هذا الإنسان المَمْسوس يفقد انسجام حركات جوارحه فتتخبط مَلكاته مع بعضها البعض، وتكون حركاته غير منتظمة وغير منطقية.

وإذا أردنا هذا الوصف في الآخرة فهي سمةٌ تميز أهل الربا، وإذا أردناها في الدنيا فهي سمةٌ لحركة الإنسان غير المنطقية، بحيث إن الحركة تتسم بالهستيريا.

وعندما نتأمل العالم الآن وما يحدث فيه، **نجد أن الاضطراب** والحركات الهستيرية تسوده، كأن يدخل إنسان إلى مدرسة **أطفال لا يعرفها** وليس له **عداء** لمَنْ فيها ويقتل كل الأطفال بلا سبب!!

أو أن يأتيَ إنسانٌ إلى إنسان لا يعرفه، ويلقي به تحت عجلات المترو كما يحدث في نيويورك هذه الأيام!!

التكامل وليس التكرار:

واللَّه سبحانه وتعالى خلق العالمَ على هيئة التكامل وليس التكرار، ولذلك تنوعت المَلَكات والإمكانيات، وارتقى الإنسان في الكون وتقدم، وكان المنطق يقتضي أن يعيش العالمُ مستريحاً وهادئاً، لأن الحضارة وفَّرتْ له أكبر الثمر بأقل مجهود وفي أقل زمن.

ولكن هل العالم الذي نعيش فيه عالمٌ منطقيٌّ على هذا الواقع؟ لا. إننا نجد أننا أغنى بلاد العالم وأحسنها من ناحية الرقي الاقتصادي هي التي تمتلئ

بأمراض النفس من قلق وغمٍّ واكتئاب وحزن واضطراب وشذوذ وانتحار.

ذلك أن العالم الذي نشكو منه الآن لا يسير بمنهج اللَّه، ولكن يسير بهوى النفس وإغواء الشيطان، ولذلك أصيب العالم بالهيستيريا والتناقض والتخبط.

إن العالم وما يجري فيه يبدو الآن.. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.. [البقرة: ٢٧٥].

فلماذا لم يبحث المفكرون عن سرِّ هذا الشقاء؟ ألم يَكُنْ على المفكرين أن يسألوا أنفسهم.. لماذا نَشْقى كل هذا الشقاء؟ وعندنا من التقدم المادي ما يكفل سعادة البشر.. لماذا لم يبحثوا؟ وكان يجب أن يفعلوا ذلك.

وإذا كانت البلوى عامة كما قلنا فإنها لا تترك دولاً متخلفة ولا دولاً متقدمة، إن البلوى تشمل البلاد كلها، ولذلك لا بدَّ أن يكون لها سبب مشترك، والبحث لا بدَّ أن يقودنا إلى أن العالم ابتعد عن منهج اللَّه، فأصبحت الدنيا عندنا غاية وليست وسيلة، والمال أصبح عندنا هدفاً، وليس مجردَ مسألة لازمة لحركة الحياة وعمارة الأرض، فالمال هو مال اللَّه لا يملكه أحد، وعندما نموت نترك مال الدنيا للدنيا.. فلماذا غيروا استخدامه؟ وجعلوه غاية؟! والجواب في كلمة واحدة: إنه البُعْد عن منهج اللَّه.

إن الدنيا كلها لا يمكن أن تكون غايةً:

أولاً: لأنها فترة محدودة وتنتهي.

وثانياً: لأن متاعها قليلٌ.

وثالثاً: لأن البقاء فيها ليس مضموناً.. فأنت لا تضمن الحياة فيها إلى الساعة القادمة.

وإذا أردنا أن نُحددَ مهمة الشيطان في كلمات قليلة، فإن أساس هذه المهمة أن يجعلنا ننسى أن اللَّه موجودٌ، وأنه يسمع ويرى، فالإنسان لا يسرق أو يزني أو يقتل وقد استحضر في ذهنه أن اللَّهَ يراه، وأنه سيعاقبه على ما يفعل.. إنه لو استحضر ساعةَ الجريمة العقوبةَ عليها لَمَا أقدم على جريمته.

ولكن الشيطان مهمته أن يجعلنا ننسى أن اللَّه موجود، فالذي يرتكب

معصية في الخفاء يعتقد أنه ما دام اختفى عن أعين الناس، فإن أحداً لم يَرَه وينسى أن اللَّه يسمع ويرى ولا تَخْفى عليه خافية.

وفي الختام نقول: إن منهج الشيطان هو أن يكتشف نقاط ضعف الإنسان لينفذ منها.. وأنه يصوّر لنا المعصية في صور مُحبَّبة إلى النفس، فيغلفها بصورة زائفة للخير.. وأن شغله الشاغل هو مع الطائعين للَّه لا يتركهم أبداً.. وأنه ينزغ الإنسان بما يثير في نفسه الغضب.. ويهمس له بما يُيسِّر له الشر.. ويُوسوس له بما يُزيِّن له المعصية.. ويجعلها مُحبَّبة إلى نفسه.. فإذا تمكَّن من الإنسان مَسَّه فأفقده انسجام حركاته، فتصبح تصرفاته نوعاً من الهيستيريا والتخبط.

والشيطان له طرق إغواء متعددة، واللَّه سبحانه وتعالى يُعين المؤمنين من عباده على مقاومته ومخالفته، ويترك له عباده الكافرين ليزيدهم ضلالاً ومعصيةً.. واللَّه جلَّ جلاله لا يُعين كافراً ولا يهديه.

الشيطان وجنوده:

وإذا أردنا أن نكمل الصورة فإننا نقول: إن هناك جنوداً للشيطان.. جنوداً مادية من الإنس والجن.. وجنوداً معنوية يستخدمها في إضلاله للناس.

ولكن قبل أن نبدأ الحديث، وحتى تكون الصورةُ واضحةً فإنه لا الشيطان ولا جنوده يخرجون عن أمر اللَّه الفعلي في كونه.. واللَّه سبحانه وتعالى أعطانا تجربة عملية، بأنْ أخضع الشياطين الذين هم أعلى عنصراً في الخلق لبشر نبي هو سليمان عليه السلام وجعلهم يأتمرون بأمره ولا يستطيعون مخالفته.

واقرأ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وهكذا أخضع اللَّهُ سبحانه وتعالى الجنَّ ـ شياطينهم وصالحهم ـ لبشر مخلوق من طين، هو سليمان عليه السلام، ولو أراد الحق سبحانه أنْ يُخضعَ

لنا شياطينَ لأخضعهم لنا، لأن اللَّه جلَّ جلاله استجاب لدعوة سليمان حين دعاه يطلب منه مُلْكاً لا يعطيه اللَّه لأحد من بعده.

واقرأ في القرآن الكريم:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٥ ـ ٣٨].

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين أراد أنْ يُخضعَ الشياطين للإنسان أخضعهم رغم إرادتهم قهراً، فلا يعتقد أحدٌ أن الشياطينَ في الأرض تقوم بما تقوم به رغماً عن إرادة اللَّه في كونه، بل كما قلنا هي من تمام مهمة الدنيا أن يكون فيها إغواء.. وفيها جهاد وإيمان.. وأن ينتصرَ المؤمنون بجهادهم وإيمانهم على إغواء الشيطان فيستحقوا الجنة.

إن الشيطان كما قلنا له جنود مادية وجنود معنوية.. ومن أكبر جنود الشيطان المعنوية الغرور، فهو يظل يحوم حول الإنسان حتى يدخل إلى قلبه الغرور المعنوي والمادي، ويحاول أنْ يجعله يغترُّ بماله أو بعلمه أو بقوته أو بأيِّ شيء آخر.. المهم أن يغترَّ الإنسان ويحسب أنه استغنى عن اللَّه تبارك وتعالى، وينسب الفضل إلى نفسه، فيقع في المعصية والكفر.

الشيطان في غزوة بدر:

ولننظر ماذا فعل الشيطانُ في غزوة بدر مع الكفار ليُحرّضهم على قتال المؤمنين.. إن القرآن الكريم يروي لنا هذه القصة، فيقول:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

هكذا كان دور الشيطان في غزوة بدر.. بدأ بزرع الكِبْر في قلوب الكفار وقال لهم: ستغلبون وتنتصرون على المسلمين.. إنكم الأقوياء في العتاد والعدة.. وإنهم قلة بالنسبة لأعدادكم.. إنكم ستغلبونهم حتماً.. وأنا معكم سأنصركم.

وظلَّ يُدخل الكبرَ في نفوس الكفار، ويُزيِّن لهم أنهم أقوياء، وأنهم منتصرون لا محالةَ، حتى صدَّقوه وذهبوا ليحاربوا رسول اللَّه ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين.

وعندما وصل الكفار إلى موقع المعركة، وأصبح القتالُ حتمياً، نظر الشيطان ورأى قوة الإيمان وبأس المؤمنين وتأييد اللَّه لهم.. فأسرع هارباً تاركاً أولياءه الذين وعدهم بأنه لا غالبَ لهم.. أسرع يهرب بعيداً.

وقال كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

هنا يتوقف بعض الناس ليقولوا: كيف يقول الشيطان إني أخاف اللَّه؟! وإذا كان يخاف اللَّه تبارك وتعالى فلماذا المعصية والإصرار على المعصية؟

وماذا يخيف الشيطانَ وهو مطرود من رحمة اللَّه.. ملعون رجيم خالد في النار هو وكلُّ مَنْ تبعه؟!

نقول: إن الشيطان يخاف العذاب الذي ينتظره في الآخرة.. وهذا الخوف يملؤه رغم كل ما يفعله في الدنيا.. إنه يتبرأ من كل معصية تمتْ على يديه، ويحاول أنْ يتنصلَ منها ويهرب من مسؤوليتها أمام اللَّه.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وهكذا يحاول الشيطان أنْ يتنصَّلَ من مسؤولية إغواء الإنسان بالكفر والمعصية حتى يوم القيامة، عندما يقف أمام اللَّه، يلقي اللوم كله على الإنسان.. ويحاول أن يهرب من المسؤولية.

ويعطينا الحق سبحانه صورةً لهذا المشهد في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

إن الشيطان الذي زيَّنَ للناس كلَّ المعاصي والكفر، يأتي يوم القيامة

ويتبرأ مما فعل، ويحاول أنْ يُلقيَ اللوم كله على الإنسان.. ويقول: إنني لم أفعل شيئاً، إلا أنني دعوتُكم فاستجبتم لي، ولولا أنكم في أنفسكم تريدون الكفر والمعصية وتميلون إليهما، ما كنتُ قادراً على أن آخذكم إلى معصية اللَّه فلا تُلقُوا اللوم عليّ، ولكن ألقوه على أنفسكم، لأنكم استمعتم إلى إغوائي.. ولم يكن لي سلطانٌ أنْ أقهركم على المعصية وهذه حقيقة، لأن الشيطان لا يملك أن يقهر إنساناً على معصية اللَّه جلَّ جلاله.

لا عقاب على القهر:

إن من دلائل رحمة اللَّه بعباده أنه يُسقط عنهم كلَّ عمل يتم قهراً حتى يكون الحسابُ عدلاً.. فكلُّ ما يقهر الإنسان عليه ويفعله رغم إرادته لا يُحاسب عليه يوم القيامة.. مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.. [النحل: ١٠٦].

وهكذا.. فإن الذي يُكره على إعلان الكفر ـ وقلبه مؤمن ـ لا يُحاسب على ذلك، ولقد جعل اللَّه تبارك وتعالى منطقة الحساب ـ وهي ما يعتقده القلب ـ لا يمكن أن تخضع لأيِّ إكراه، فأنت تستطيع أنْ تُخضع الإنسان ليفعل ما تريد رغماً عنه، ولكنك لا تستطيع أن تُكرهَ قلبه أبداً على أن يحبك وهو يكرهك، ولا أن تُخضعَ القلبَ قهراً ليؤمن بما لا يريد أن يؤمن به.

اللَّه سبحانه وتعالى يخبرنا أن الشيطانَ ليس له سلطانٌ على الإنسان.. والسلطان إما أن يكون سلطان القهر، بحيث يجعل الإنسان يعمل شيئاً رغماً عنه بالقوة، وإما سلطان الحجة بحيث يقنع الإنسان بأنْ يفعلَ شيئاً بإرادته.. والشيطان في كلتا الحالتين لا يملك سلطانَ القهر ولا سلطانَ الحجة.. ولكنه ـ كما قلنا ـ ينفذ من جوانب الضعف في الإنسان.. فيُزيِّن له ما تهواه نفسه حتى يقعَ في المعصية.

والآية الكريمة تقول: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾.. [إبراهيم: ٢٢].

مصرخكم.. أي أسرع لنجدته ليزيل أسباب صراخه.. وفي هذه الحالة لا بدّ أن يكون من القوة بحيث يستطيع أن يزيل أسباب الصراخ.. فإذا هاجم

لصَّ شخصاً وصرخ طالباً النجدة، فإنه لا يهبُّ لنجدته إلا إنسان قوي يستطيع أن يتغلبَ على المهاجم، ولكن إذا كان الذي سمع الصراخَ شيخٌ ضعيفٌ فإنه لا يستطيع أن يُصرخَهُ، أو يزيل سبب صراخه.

إن الشيطان يقول: أنا لا أملك القوة لأزيل سبب صراخكم من العذاب الذي أنا ذاهبٌ إليه معكم، ثم يتبرأ من الذين كفروا بسبب إغوائه، ويحاول أنْ يتنصَّلَ من المسؤولية، فيقول كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ ﴾.. [إبراهيم: ٢٢].

إذن: فأول جنود الشيطان هو الغرور، بأنْ يُصوّر للإنسان أنه يستطيع أنْ يُحقق بذاته ما يشاء ويجعله يعبد نفسه، أو يعبد عقله، أو يعبد الأسباب، أو يعتقد أنه أقدرُ من اللَّه سبحانه وتعالى على التشريع، فيترك منهج اللَّه وقوانينه ويشرّع لنفسه مما يسمونه القوانين الوضعية إلى آخر ما نراه.

ويجب أن نعلمَ أن الشيطانَ له جنودٌ ماديون، هم شياطين الإنس والجن، وأولئك هم الذين اتبعوه واتخذوا منهجه، يقاتلون من أجل الباطل، ويحاربون الحق، ويسخرون من المؤمنين.

وهؤلاء يقول عنهم اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

حزب الشيطان هؤلاء يحاولون نشر الإلحاد، ويقاومون كلَّ دعوة للحق، ويقفون أمام رسالات السماء، يصدون عنها الناس، وتصل المسألة إلى حدّ القتال.. مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾.. [النساء: ٧٦].

وهناك شياطين الجن وشياطين الإنس.. شياطين الإنس هم الذين يكون لهم الشيطان قريناً. أي: يكون مقترناً بالإنسان، وعندما يكون الشيطان قريناً وملازماً للإنسان.. يكون الإنسان قد وصل إلى قمة المعصية، لأنه ما دام الشيطانُ ملازماً لشخص ما، فهو لا يدفعه إلى الخير أبداً، بل يدفعه دائماً إلى الشر.. لأنه قرين سوء.

وهكذا دائماً قرناء السوء يساعد بعضهم بعضاً، ويُقوِّي بعضهم قلوبَ بعض على اقتراف الإثم.. تراهم وقد اجتمعوا على المعصية في كل ليلة يجتمعون في منزل أحدهم، ومعهم الخمر والنساء، ويرتكبون كل ما يغضب اللَّه، وتربط بينهم المعصيةُ في الحياة الدنيا برباط قوي متين.. ولكن في الآخرة يتبدَّل الحالُ، ويكونون أعداءً لبعضهم البعض.

على أن اللَّه سبحانه وتعالى شرح لنا ماذا يفعل الشيطان في قرينه، فقال كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١١٩].

هذا هو ما يفعله الشيطان مع قرنائه؛ إنه أولاً يضلهم.. أي: يُبعدهم عن منهج الحق، ويُفسد لهم هذا المنهج، وقد كانت الشياطينُ قبل نزول الآيات تسترقُ السمعَ في السماء على منهج اللَّه.. فإذا علمت شيئاً منهم أسرعوا إلى قرنائهم من الكهنة والسحرة وغيرهم، وأبلغوه بما سمعوا من المنهج مُحرَّفاً.. بعد أنْ يُضيفوا إليه ما يجعله وسيلةً للضلال، ويُخْفوا منه كل ما يهدي الإنسان.

ثم يضيف الكهنة بدورهم إلى المنهج ما يُحقق لهم السلطان في الدنيا، ويدَّعُون أنه من عند اللَّه، ليفسدوا به في الأرض، ويُضلوا به الناس.

وهكذا حُرِّفتْ الكتبُ السماويةُ، وأضيف إليها ما لم يأمر به اللَّه، وما لم يُنزله، وحُذف وأُخْفيَ منها ما أمر به اللَّه، فأصبحتْ لا تفي بغرض الهداية، ولكن عندما نزل القرآن الكريم.. مُنعَتْ الشياطينُ من استراق السمع، وحفظ اللَّهُ القرآنَ الكريم من أيِّ تغيير أو تبديل.

هذا هو الإضلال:

أما قول الشيطان: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ فإن الشيطان يُزيِّن للإنسان المعاصي التي يتمنى أنْ يفعلها، ويُصوِّر له أنها ليستْ معصيةً، ولكنها خيرٌ.

أما مسألة الأنعام وتغيير خَلْق اللَّه.. فإن من تمام الخَلْق هو ما خلق اللَّه

سبحانه وتعالى، فكل خَلْق اللَّه له مهمة في الحياة، خُلق مُيسّراً أنْ يُؤديها، وتغيير هذا الخَلْق هو إفساد لهذه المهمة.

إن الذين كانوا يشقُّون آذان الأنعام على أساس أنها للأصنام وخُدَّامها خرجوا بخَلْق اللَّه عن مهمته، فالأنعام هي متاعٌ للإنسان يحمل عليها أثقاله ويأكل لحومها ويأخذ جلودها وأصوافها.. ولكنها لا تفيد الأصنام شيئاً.. فكأن الشيطان يريد أنْ يُخرجَ خَلْق اللَّه عما خُلقوا من أجله، ويستعين في ذلك بقرنائه.

وإذا نظرنا الآن إلى بعض التجارب التي تتم، كأنْ يأتوا بقدم كلب ويزرعوها في جسد ضفدعة، أو غير ذلك مما يتم.. نقول لهم: ماذا تستفيد الإنسانية من ضفدعة لها قدم كلب؟

الضفدعة لها مهمة في الدنيا خُلقت من أجلها، وخلقها بالطريقة التي خُلقت بها هو من تمام أداء مهمتها، ولكنك جئتَ لتفسد هذه المهمة دون أنْ تفعلَ شيئاً، وكذلك كل التجارب التي تتم فينتج عنها إنسان مشوّه.. نقول: أفسدتَ خلقَ اللَّه ولم تستفد شيئاً.. وكذلك بالنسبة لكل العبث الذي يتم للسيطرة على العقل البشري.. إنما يُفسد مهمته في الكون.

الحق سبحانه إظهاراً منه جلَّ جلاله لتفاهة ما يمكن أن يفعله الشيطان يخبرنا بأن الشيطانَ يستعمل سلاحَ الخوف ليستعبدَ الإنسان، يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

كيف يسيطر الشيطان على الإنسان بالخوف؟ إذا تصدَّق الإنسان خوَّفه الشيطان من الفقر، وإذا أراد أن يقول كلمة حق خوَّفه الشيطانُ من بطش رؤسائه الظالمين، وإذا أراد أنْ يقومَ للصلاة خوّفه الشيطانُ من أنه سيضيع منه كذا وكذا من مصالح الدنيا.

وإذا قام ليجاهدَ في سبيل اللَّه خوَّفه الشيطانُ من قوة الكافرين، وأدخلَ في نفسه أنه سيُقتل عند بدء المعركة، وإذا أراد أنْ يسعى في خير خوّفه الشيطانُ من أن ذلك سيُضيع وقته ومصالحه، وإذا أراد أنْ ينهى عن منكر خوَّفه الشيطانُ من أن ذلك سيجلب عليه الأذى.

وهكذا كلُّ خير يخطر على النفس يُخوّف الشيطانُ الإنسانَ من أنه سيقع عليه ضررٌ في ماله أو نفسه أو أولاده أو وظيفته أو تجارته أو ما يهمه من أمور دنيوية.. وبهذا السلاح ـ سلاح الخوف ـ يلقي الشيطانُ الرعبَ في نفس الإنسان من ناحية الخير.

لا بدَّ لنا من وقفة مع الأنبياء والرسل.. والشيطان، فهناك حكم عام وخصوصية مع عدد من أنبياء اللَّه ورسله، فالحكم العام هو قول اللَّه سبحانه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٢، ٥٣].

نقول: ما هي أمنية كل رسول؟ أمنية كل رسول هي أن ينشرَ منهجه، ويؤمن به الناس، وينجح في إصلاح حركة حياتهم، وجَذْبهم للإيمان، وتركهم الكفرَ. هذه هي أمنية الرسول، ولكن هل يترك الشيطانُ الناسَ يستمعون للرسل ويؤمنون برسالاتهم؟

لا.. إنه يقف لهم ليصدَّهم عن منهج اللَّه، ويبدأ بالمترفين الذين سيضرهم المنهج في نفوذهم الدنيوي، فيجعلهم دعاةً له، يقاومون الرسالات، ويضعون العراقيل، ويُعذِّبون مَنْ آمن حتى يكفر، ويتصدون للمؤمنين بالإيذاء.

ولكن.. هل يظل الباطل منتصراً؟

لا.. إن اللَّه تبارك وتعالى ينسخ ما يُلقي الشيطان وينصر رسوله، فتنجح الدعوةُ ويزدادَ عددُ المؤمنين. هذا هو معنى الآية الكريمة.. الرسول يتمنى أن ينجح في مهمته، ولكن الشيطانَ يحرِّض العاصين والكافرين ضده وتنتهي المعركة بانتصار الرسول على الشيطان.

على أنه ورد ذكر الشيطان بالنسبة للرسل في أكثر من آية:

* في قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

* وقول يوسف عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

* وقول الحق جل جلاله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

* وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.. [الكهف: ٦٣].

* وقول موسى أيضاً: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

وهذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر.. ونقول: إن كَوْنَ الأنبياء معصومين لا يعني أنهم ممنوعون من جهاد النفس، بل لا بدّ أنْ يبقى لهم شيءٌ يجاهد كلٌّ منهم به نفسه، فالرسول نفس بشرية، فيها نوازع وشهوات يتغلب عليها بجهاد نفسه، وإذا لم يكُنْ لنفوس الأنبياء أمور ومواقف يجاهدونها لكانوا ملائكة.

لقد جعلهم اللَّه سبحانه وتعالى بشراً حتى يكونوا قدوةً للمؤمنين بهم في كفاح الشيطان، وكفاح النفس والتغلب عليهما، ولذلك سُمِّيَ بعضُ الأنبياء بأولي العزم. والعزم هنا معناه العزم في طاعة اللَّه ومحاربة الشيطان.

أما بالنسبة لموسى عليه السلام فعندما ضربَ الرجلَ وقتله لم يَكُنْ قد كُلِّفَ بالرسالة بَعْد، ولكن كان فيه الإيمانُ والتقوى، فتنبَّه في الحال إلى أن ما عمله هو من عمل الشيطان، واتجه إلى اللَّه سبحانه طالباً المغفرةَ والتوبةَ.

أما قول موسى عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.. [الكهف: ٦٣]، فمعناه أن الشيطان حاول أنْ يُوسوس لموسى، فتنبَّه موسى عليه السلام وتخلَّص من وسوسة الشيطان.

أما بالنسبة ليوسف عليه السلام فإن قوْلَ الحق تبارك وتعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾.. [يوسف: ٤٢]، فهو يحمل معنيين:

- إما أن يكون الذي خرج من السجن أنساه الشيطانَ أن يذكر يوسف عند عزيز مصر، فلبث يوسف في السجن بضع سنين.
- وإما أن يكون يوسف هو الذي نسي.

ولكن المعنى الأقوى هو أن الشيطانَ أنسى ذلك الذي نجا أن يذكر

يوسف عند عزيز مصر، ويطلب منه إخراجه من السجن، وبسبب ذلك بقي في السجن بضع سنين.

ويؤكد هذا أن يوسف قال للرجل: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: عند الملك الذي أنت ذاهب إليه، وقُلْ له: هناك مظلوم في السجن.. أحواله كذا وكذا، ومن هذا نفهم أن الآية لا تعني أن الشيطانَ أنسى يوسفَ ذكر اللَّه تبارك وتعالى.

أما قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فقد كان أيوب يشكو لربه أن الشيطانَ يُوسوس له، ويقول: كيف وأنت نبي تصيبك كل هذه الابتلاءات؟ كيف تمرض ويحدث لك ما حدث.. من فَقْد للأولاد، ومعصية من الزوجة وغير ذلك، ألم يَكُنْ من الواجب أن يكرمك اللَّه سبحانه وتعالى لأنك نبيٌّ ويمنع عنك كلَّ هذا؟

ولكن أيوب عليه السلام الذي أتعبه وأصابه كلامُ الشيطان بعذاب نفسي لم يلتفت إليه، وإنما اتجه إلى اللَّه سبحانه وتعالى بالدعاء، يطلب منه أن يذهب عنه ما هو فيه، واستجاب اللَّه جلَّ جلاله لدعائه.

وهكذا نرى أن إبليس حاول أن يقتربَ من أنبياء اللَّه، كما شارك في تدبير خطة قتل رسول اللَّه ﷺ في يوم الهجرة، ولكن اللَّه جلَّ جلاله عصم الأنبياء والرسل منه، ونصرهم عليه.

على أننا لا بدَّ أن نتعرّضَ لحديث رسول اللَّه الذي يقول فيه: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» [أخرجه مسلم ٥٧٢٩]، ذلك أن بعض المستشرقين يحاول التشكيك في هذا الحديث.

ونقول لهؤلاء المشككين الذين يحاولون أن يجدوا ثغرة ينفثون من خلالها سمومهم ـ وهيهات:

إن الدم فيه مُكوِّنات تجري فيه مثل: الحديد والفوسفات والكالسيوم، وغير ذلك من المُكوِّنات التي أظهرتْها لنا التحاليلُ الحديثةُ، بل إن الميكروبات والجراثيم ـ وهي جسم مادي ـ تخترق الجلد وتدخل إلى الدم، وتظل فيه فترة حضانتها حتى تتكاثر، وتقوم بينها وبين كرات الدم البيضاء معاركُ.

والشيطان ليس مخلوقاً من مادة الطين، بل هو مخلوق من مادة أكثر شفافية.. هي غاية في اللطف والدقة.. فكيف نستكثر أن يخترقَ الجلد ويجري في الدم كما تجري عشرات المواد الصلبة ونحن لا نُحسُّ بها؟؟!

نسأل اللَّه أنْ يعصمَنا من الزلل.. وألَّا يجعل للشيطان على قلوبنا من سبيل، إنه سميع مجيب.